روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



الحجاج بن يوسف

قبل أن تقرأ..

«جورجى زيدان» مفكر لبنانى المولد مصرى الإقامة عروبى الهوى.. إسلامى الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤)، قدم خلالها للفكر العربى أكثر من خمسين كتابا فى مجالات الفكر كافة.. يأتى فى مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية)، والتى استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامى بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل، وهو الكاتب المسيحى المستنير الذى استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية فى تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التى تشغلنا فى الوقت الحالى...

رئيس التحرير

مقدمة ..

فى هذه الرواية يواصل جرجى زيدان قصص التاريخ الإسلامى ممزوجا بأحداث عاطفية ، وهو يركز فى هذه الرواية على بلاد الجزيرة العربية وعاصمتها المدينة المنورة ، وكيف انتهت خلافة عبدالله بن الزبير عليها بعد حصار طويل ضرب فيه الحجاج بن يوسف أحد أغلظ القادة فى تاريخ الإسلام الذين كانت لهم سمعتهم السيئة فى القتل وسفك الدم والوصول إلى غايته بكل الطرق حتى مالم يكن منها مشروعا أو مقبولا لدى جماهير المسلمين ، فقد حاصر البيت الحرام وفيه عبدالله بن الزبير ، وضرب الكعبة نفسها بالمنجنيق حتى قتل ابن الزبير ، واستقرت الخلافة لعبد الملك بن مروان فى الحجاز والشام والعراق ومصر ، لتبدأ حلقة من حلقات الملك الأموى العضود ، على أنقاض الضحايا والدماء من شرفاء الصحابة الذين كانوا مع عبدالله بن الزبير .

وجرجى زيدان يسوق هذه الأحداث بتفاصيلها ، وسط عناصر الرواية التى تنقلك نقلا إلى ذلك العصر بطوابقه الاجتماعية والثقافية والسياسية ، حتى لكأنك تنسى واقعك ، وتعيش تلك الأيام بما فيها من مواقف يمثل بعضها ذرا الإنسانية العالية ، ويمثل بعضها الآخر وهدة الانحطاط الأخلاقى لدى بعض الناس الذين يوجدون فى كل زمن ، فيعكرون الوجود الإنسانى ، ويلوثونه بأغراضهم الدنيئة التى تبدو كأنها بثور كريهة وسط مجتمع إنسانى كان قد بلغ قمة البشرية الراقية فى عصر الصحابة الجميل .

والعناصر التى حشدها جرجى زيدان فى هذه الرواية تجعل المأساة التاريخية فى إطارها ، فهو يصور الخلافات على الخلافة ، فى إطار أن كلا من المختلفين تفترق رؤاهم ونظراتهم إلى هذه المسئولية الجسمية فهو يصف عبدالله بن الزبير بتقواه وعبادته مما يرفعه إلى قمة سامية لايمكن فيها أن يطمع بالخلافة لشخصه ودنياه ، فهو ليس رجل دنيا بل هو رجل دين ، يصلى فإذا سجد كأنه غاب عن الوجود مستغرقا في جلال ربه حتى حين تضرب الكعبة بالمنجنيق ويتطاير منها الصخر والشذر فيقع قريبا منه وهو مستمر فى سجوده لايكاد يشعر به ويطيل الصلاة حتى تقع العصافير على ظهره فى أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده ويقضى لياليه على ثلاث حالات : ليلة يقضيها قائما إلى الصباح ، وليلة راكبا ، وليلة ساجدا . أما صومه فإنه يصوم الدهر كله إلا ثلاثة أيام يفطرها فى كل شهر ، بينما خلفاء بنى أمية رجال دنيا ودولة ، لديهم المال والرجال ، ولديهم أمراء أمثال الحجاج بن يوسف يقتلون من تسول له نفسه الخروج على الدولة . فيورد جرجى زيدان من مصادر التاريخ أن الحجاج قتل مائة وعشرين ألف نفس وسجن ثلاثة وثلاثين ألفا ، منهم هذا الساجد القائم التقى العابد عبدالله بن الزبير ومن معه من أمثاله الركع السجود .

ووسط هذه المشاهد المأساوية يلقى جرجى زيدان الضوء فى الرواية على مشاهد أخرى مصاحبة ، حيث يصور التقاليد العربية الأصيلة التى تعنى بإكرام الضيف وإيقاد النار وسط

الصحراء بين المضارب ليأوى إليها المسافرون ليلا ويهتدوا بنارها لينزلوا إليها ، فيبيتوا مرتاحين من عناء السفر ، حتى لتعرف وديان كاملة مثل «وادى القرى» قرب المدينة بالكرم وحسن إيواء الضيوف كما يصور مجالس الشعر والغناء فينقلك نقلا شبه كامل إلى بيت السيدة سكينة بنت الحسين الأميرة ، ذات الترف فى بيتها وهى تستقبل كبار الشعراء فى الجزيرة العربية الفرزدق ، وجرير ، وجميل بثنية ، وكثير عزة ، ونصيب ، فتنقد سكينة شعرهم نقدا رائعا ثم تصلهم بالمال وهى من وراء ستار ، فيما يعد أقدم صالون أدبى فى التاريخ العربى يجتمع فى رحابه الشعراء من الرجال والشاعرات من النساء مثل ليلى الأخيلية ، والمغنيات الشهيرات مثل عزة الميلاء ، وتجرى فيه المجادلات الفقهية والحديثية على لسان الجوارى حين ينتقد أحد الضيوف ستائر بيت سكينة وعليها صور فيقول اتخذتم تلك الصور استارا ، ولو كانت صور أشجار فقط لهان أمرها ، ولكنها صور ذات أرواح وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة لاتدخل بيتاً فيه صورة، فيأتيه على الفور صوت الشاعرة ليلى الأخيلية ، وقد كانت جليسة سكينة قائلة : ولكنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا : إلا رقما فى ثوب (رواه البخارى) .

وفيما بين ذلك ترى جرجى زيدان يورد صورا من التحليل النفسى لبعض أشخاص الرواية ، يتعمق فيها حتى يصل إلى الحكمة ، فتأتى سلسلة دقيقة التعبير غاية الدقة تعلم القارىء من دروس الحياة والخبرة بالنفس البشرية الكثير

حين يقول : «من الناس من يتعمدون الإيقاع بالذين أحسنوا إليهم لأن مجرد تصورهم أن لهم فضلا عليهم يهيج حسدهم حتى يقودهم إلى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة» أو حين يورد علي لسان أحدهم ، كيف أستطيع الاحتفاظ بمنزلتى بين الناس، وفى الدنيا رجل يقول : إنه أنقذنى من الموت .. وله على فضل» .

وحين يقول أيضا : « إن الذين يظهرون الكبرياء ، ويستبدون بأصاغر الناس ، يستولى عليهم الذل والصغار إن وجدوا عنفا من كبير ، لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم ينبع من نفس كبيرة ، وإنما هو وليد إحساس بالنقص وضعف الرأي ، وأما كبير النفس فلا يسوم الناس إهانة مخافة أن يوجه إليه مثلها ، ونفسه تأبي ذلك» وحين يقول أيضا : « فإذا رأيت جفاء وكبرياء من أحد الناس وأنت لا تعرفه ، فأعلم أنه دنيء الطبع ، ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر أو ما في خزائنه من الأموال الطائلة .. فإن دناءة الطبع تظهر فى جفائه وكبريائه » .

إن جرجى زيدان ليبلغ به الإخلاص غاية للمثل العليا التى جسدت الإسلام حقا حين يورد صورة السيدة الجليلة أسماء بنت أبى بكر - ذات النطاقين - أم عبدالله بن الزبير حين جاءها عبدالله يودعها ويستشيرها فى موقفه من الحجاج بعد أن خذله من خذله وصمد معه من صمد قال : والآن يا أماه : لقد ألح أعداؤنا بالمجانيق ، وقد علمت أنهم سيهجمون علينا هجوما نهائيا ليس بعده هجوم ، فإما أن

نظفر أو يظفروا، وقد آليت أن أفعل أمرا أستشيرك فيه.. فبماذا تشيرين؟.

قالت وشفتاها ترتجفان – من الشيوخة لا من الخوف – «أنت أعلم بنفسك يا بنى .. فإن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، فلم بقاؤك فى الدنيا؟.. القتل أحسن!»

فقال عبدالله: «يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى، ويصلبونى».

قالت: «إن الشاة لايضرها سلخها بعد ذبحها، فامض على بصيرتك، واستعن بالله».

فمضى وهى تدعو له «اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل .. وبره بأبيه وبى. اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين».

وكان ذلك آخر العهد بينهما.

ولعله من إبداع جرجى زيدان. وقد انتهت هذه الوقائع فى الرواية، بالمأساة من الناحية السياسية، فقد عوض القارىء أن ينهيها من الناحية الفنية والعاطفية بتلاقى الأحبة، حتى يعوض الغم فى عالم الواقع إدخال بعض السرور فى عالم الفن القصصى.

عبدالمعطى بيومى

بعد مقتل الحسين

انتهينا فى رواية «غادة كربلاء» إلى حيث قتل الحسين بن على وأهله فى كربلاء بجوار الكوفة، يلى ذلك وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ. ولما مات يزيد، كان عبدالله بن الزبير لا يزال فى مكة يدعو إلى نفسه، وقد خلا له الجو بعد موت الحسين، ثم استتب الأمر بمبايعة بن الزبير. ودانت الحجاز له.

وأما فى الشام، فإنهم بايعوا، بعد موت يزيد، ابنه معاوية (الثانى) فلم يعش إلا أياما ثم اختلفوا على من يبايعون بعده. وكان فى جملة أمراء بنى أمية مروان بن عبدالحكم. فبايعوه لأنه شيخ طاعن فى السن، فتزوج أم خالد بن يزيد ليكسب إلى جانبه حزب بنى يزيد.. ولكن امرأته هذه خنقته سنة ٦٥ هـ، لسبب سيأتى ذكره، وهو لم يحكم إلا تسعة أشهر وبضعة عشر يوما.. فولوا مكانه ابنه عبدالملك بن مروان، وفى أيام هذا الخليفة ازدهرت دولة بنى أمية، وتأيد سلطانها.

وأما ما كان من أهل الكوفة، فإنهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه، ورجعوا إلى رشدهم، وقاموا يطالبون بدمه، وسموا أنفسهم التوابين.

وفى سنة ٦٦ هـ، ظهر فى الكوفة رجل اسمه المختار بن أبى عبيد، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس إلى بيعة ابن

الزبير . فحارب الأمويين ، وقتل قتلة الحسين .. فلما ذاق النصر بدل دعوته ، وصار يدعو إلى محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه .

فلما استفحل أمر المختار فى الكوفة ودان له العراق ، وأصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبدالملك بن مروان فى الشام ومصر، والمختار بن أبى عبيد فى العراق ، وابن الزبير فى الحجاز ، غضب عبدالله بن الزبير على المختار لنقضه بيعته .. فبعث إليه أخاه مصعب بن الزبير فحاربه وقتله ، فدانت العراق لعبد الله بن الزبير، ولم يبق لبنى أمية غير الشام ومصر. فخاف عبدالملك بن مروان على سلطانه ، فجند جندا وقدم إلى العراق فحارب مصعبا بن الزبير وقتله سنة ٧١هـ واسترد العراق. وبعث جندا إلى الحجاز لقتال ابن الزبير فملك المدينة ، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى فى جند لفتح مكة فحاصرها ، وطلب إلى عبدالله بن الزبير أن يسلم فأبى .. فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محاصر فى مكة ، وقد قل زاده وفارقه رجاله ...

عزة الميلاء فى المدينة

المدينة ، ويقال لها يثرب ، هى مدينة الرسول .. وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق .. وقد عمرت فى صدر الإسلام حتى أيام يزيد بن معاوية فهجرها كثير من أهلها لكثرة الفتن والحروب فى أيامه ، ولكنها ظلت آهلة وفيها أهل البيت ، وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق .

وكان من أهل المدينة ، فى أواسط القرن الأول للهجرة ، مغنية يقال لها عزة الميلاء . وهى أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء فى الحجاز ، وقد سميت الميلاء لتمايلها فى مشيتها من بدانتها . وكان العرب حديثى عهد بالعود ، فأجادت هى التوقيع عليه حتى ضرب بها المثل . وكانت تحسن العزف على سائر آلات الطرب .. وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس ، لا يقدم قادم إلى المدينة إلا التمس أن يراها ويسمع غناءها .

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الفنون اللائقة بأهل الشرف ، ولكن عزة كانت مع ذلك ذات وهيبة ووقار .

وكانت دار عزة فى طرف المدينة فى طريق الشام ، فى بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح . وحول البستان والدار سور قليل الارتفاع . والبيت يتألف من ساحة كبيرة، وعلى الجانبين غرفتان ، وفى الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزائرين .

ففى يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر أغسطس سنة ٦٩٣م) قضت عزة الميلاء نهارها فى بيتها ، وكان يوما شديد الحر .

وكانت يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تزايدت بدانتها ، وذهبت استدارة وجهها .

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ، وعندها فتاة من أهل المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها .

وكانت الفتاة ترتاح إلى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها فى أمرها وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم ، إذا نظرت إلى تقاطيع وجهها فإنك ترى جمالاً باهراً ، وفي عينيها مايدل على الذكاء والحب ، وكانت فى نحو الثالثة والعشرين من عمرها .

ضواحى المدينة

فلما أرادت عزة الصعود إلى سطح منزلها التماساً للهواء ، أمرت جارية لها أن تفرش عليه البساط وتعد المائدة ، وأمسكت ضيفتها بيدها وقالت : «هلم بنا إلى السطح يا سمية ، واتركى الهواجس عنك وتعالى لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتى» ..

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها ، وأرادت نسيان ما يجول فى خاطرها من دواعى الهم ، حتى وصلتا إلى السطح ، فجلست عزة وأجلست سمية إلى جانبها ، وقد لاحظت أنها لاتزال مضطربة البال بما فى نفسها . فأرادت أن تصرف ذهنها إلى شئ آخر ، فقالت لها : «انظرى يا بنية إلى هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة ، فإن نظرك لا يبلغ آخرها إلا على التلال البعيدة ، وخصوصا جبل أحد الذى جرت فيه الوقعة الشهيرة بين النبى صلى الله عليه وسلم وقريش.. وذكر هذه الوقعة يؤلمنى لأن الغلبة كانت للقرشيين ، وقتل من المسلمين سبعون رجلا . وأصيب النبى بجراح وقتل عمه حمزة» .

فقالت سمية : «وهل شهدت تلك الوقعة ؟» .

قالت عزة : «كلا ، لأنها حدثت منذ سبعين سنة ، فكيف أكون قد شهدتها ؟» ..

قالت ذلك ثم تحولت نحو المائدة ودعت سمية لمشاركتها فى الأكل ، ثم عادت إلى محادثتها ، فقالت لها : «مالى أراك صامتة يا سمية ، هل تفكرين فى والدك وتخافين إذا غبت عنه أن ينقم عليك ؟ لاتخافي ، فإنه إذا علم أنك عند عزة لايعاتبك» .

ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا إلى الضوء .. فصفقت عزة فجاء رجل فى نحو الستين من عمره ، فلما رأته سمية غطت وجهها . فضحكت عزة ، وقالت : «أتحتجبين من خصى ؟»

وكان فى المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء الخصيان ، كانوا يخالطون النساء ، وأكثرهم يحب الغناء ويحسنه . وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد الخصيان ، فلا يزال يصف ما يعجبه ثم يتوسط بينه وبين من تعجبه منهن حتى يتزوجها . وكان أكثر هؤلاء الخصيان يترددون على عزة ويتقربون إليها بالخدمة والمنادمة ليتلقنوا عنها الغناء .

فلما وقف ذلك الخصي بين يديها ، قالت : «يا طويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فإننا سننزل بعد قليل» .

وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة التى تستقبل عزة فيها الضيوف . وأما طويس فإنه تناول دفا مربعا كان معلقا بالحائط ، ورماه فى حجر عزة ..

فقالت عزة : «.. ماذا تريد ؟» .

قال طويس : «.. أريد أن أسمع غناءك» .

قالت عزة : «تمهل يا طويس ريثما أستريح» .

وفيما هى تكلمه ، سمعت هدير جمال بقرب باب البستان ، فقالت : «انظر يا طويس من جاءنا الليلة ..» .

فهرول طويس ، ومشى حتى قطع البستان وانتهى إلى باب الدار، وفتح طاقة الباب وأطل برأسه فرأى جملين بجانبهما رجلان أحدهما طويل وقد تلثم بالكوفية والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم لعله يكون خادما . فقال لهما : «.. ماذا تريدان ؟» .

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل ، قائلا : «أليس هذا بيت عزة الميلاء ؟» .

قال طويس : «وماذا تريد منها ؟»

قال الطويل : «أريد الدخول إليها ..»

قال طويس : «دعنى أستأذن لك» ، قال ذلك وعاد إلى عزة وأخبرها بما رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام ، وقالت لعزة : «دعينى أنصرف إلى أبى» .

قالت عزة : «اذهبى من الطريق القريب الذى تعرفينه» .

فودعتها وانصرفت .

ثم قالت عزة لطويس : «اخرج إلى الطارق ، واطلب إليه أن يذكر لك اسمه ..»

فذهب طويس ، وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : «ان صاحبنا أبى أن يخبرنى باسمه ولما ألححت عليه قال إنه لا يقول اسمه ، ولكنه يقول لك إنه قائل هذين البيتين :

«وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب وخليل»

ليلى الأخيلية

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت قائلة : «ويلك هذه ليلى الأخيلية الشاعرة ، وهذا الشعر شعرها.. وهى صديقتى ويندر أن تنزل المدن إلا لحاجة ماسة لأنها من أهل البادية » .

فأسرع طويس يهرول حتى وصل إلى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر إلى قامتها ويلاحظ مشيتها وهى ملتفة بالعباءة وطولها يندر بين النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لأنها كانت لا تزال ملثمة.

فلما أقبلت على القاعة ، نهضت عزة وتقدمت لاستقبالها عند الباب وهى تقول : «مرحبا بليلى .. لقد بالغت فى الاختفاء» ، ثم تناولت وسادة وأجلستها عليها .

وكان طويس واقفا بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلى ، ولكنها ظلت ملثمة . فأدركت عزة ما فى نفسها ، فقالت : «لا تحتجبى

يا ليلى من هذا الرجل ، فإنه من الخصيان .. وأزيدك تعريفا به ، إنه طويس المغنى» .

فضحكت ليلى ، وأزاحت اللثام وهى تقول : «أهذا هو طويس ؟.. لقد تم سرورنا بلقياه ..»

فلما أزاحت النقاب ، ظهر وجه يتدفق هيبة ، وثغر باسم ، فانبهر طويس من رؤيتها ، وقال : «ان سرورى تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة .. وقد كنت أعجب لما أسمعه من شغف «توبة» بك ، وما ينشده من الأشعار بذكرك وأنت زوجة سواه .. فلما رأيت هذا الوجه ، علمت السر ، فهو القائل :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقى
إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل من قرت به العين صالح

ولم يتم كلامه حتى امتقع وجهها وعلاه الاصفرار ، فأدركت عزة ذلك وأرادت أن تداعبها ، فقالت لها : «لعلك قادمة من الشام ؟» .

قالت ليلى : «نعم ، وقد وصلت إلى المدينة الساعة .. وكان معى رفيق تركته فى مكان ، وجئت إليك على أن أعود إليه عاجلا» .

ليلى وتوبة

ثم أخذت عزة تداعبها ، فقال : «أتحبين توبة ؟» .

فقالت ليلى : «لم أفهم معنى سؤالك ..؟» .

قالت عزة : « .. أعرف أنك تحبين توبة ، وأسمع أنه شاب جميل المحيا شجاع النفس وانه يحبك .. فكيف تزوج سواك ، وتزوجت أنت سواه ؟» .

فقالت ليلى وقد تغيرت سحنتها وزاد وجهها احمرارا :

«دعينا يا عزة من هذا ، واسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق»

فلم تشأ عزة أن تلح عليها ، فقالت : «صدقت ، إن تلك الذكرى تؤلمك» ..

قالت ليلى : «أحسبك مازلت تريدين سماع حديثى مع توبة .. فها أنا أقصه عليك وإن كان ذكره يؤلمنى : اعلمى يا أختى أن عاداتنا نحن معاشر البدو إذا عرف أهل الفتاة أن شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لى مع توبة فإنه كان يحبنى ويقول فى الشعر ، فخطبنى إلى أبى فرفض أن يزوجنى به ، وزوجنى برجل من بنى الأدلع هو زوجى إلى الآن . ولم يكتفوا بذلك ، ولكنهم هدروا دم توبة وتربصوا به فى الموضع الذى كان يلقانى فيه حتى إذا جاءنى هموا بقتله . وكنت إذا جاءنى قبل ذلك أتبرقع وأحتجب منه على عادتنا . ففكرت فى طريقة أحذره بها من غدرهم بحيث لا يشعرون، فلم أر خيرا من أن أغير عادتى معه .. فلما جاءنى فى

ذلك اليوم خرجت إليه سافرة ، وجلست فى طريقه . فلما رآنى على تلك الحال فطن لما أردت وعلم المكيدة ، فركض بفرسه ونجا .

وكانت عزة قد سمعت هذه القصة ، ولكنها أرادت أن تسمعها لطويس .

فضحكت عزة واكتفت بالرجوع إلى الغناء ، فطربت ليلى وطرب طويس . ثم أمسكت بالعود فعزفت عليه ألحانا شجية ، وكان العود حديث العهد عند العرب يومئذ لأنهم أخذوه عن الفرس بعد الإسلام .

فلما فرغت عزة من غنائها قالت ليلى : «لقد أطربتنا يا عزة بغنائك ، وعندى أمر أحب أن أبوح به إليك .. فهل تسمحين لى بخلوة ؟» .

رملة بنت الزبير

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا ، وأغلق الباب وراءه . فلما خلتا ، اقتربت ليلى حتى دنت من عزة وسألتها : «هل تعرفين رملة بنت الزبير ؟» ..

قالت عزة : «كيف لا أعرفها وهى أخت عبدالله بن الزبير ، وهو محاصر فى مكة الآن ..» .

قالت ليلى : «.. ومن حاصره ؟» .

قالت عزة : «ألم تسمعى بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفى من الحجاز بأمر عبدالملك بن مروان لقتال عبدالله بن الزبير فى مكة ؟» .

قالت ليلى : «أظننى سمعت شيئا من ذلك قبل خروجى من الشام» ..

قالت عزة : «وقد جاء الحجاج وأنت تسمعين بشدة بطشه واستبداده ، وحاصر عبدالله بن الزبير فى مكة وضيق عليه .. وقد خرجت المدينة من سلطانه ، ووالينا الآن من قبل عبدالملك ابن مروان» ..

فأطرقت ليلى وصمتت ، وكأن خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم بقوله ، فأدركت عزة ذلك ، فقالت لها : «مالى أراك صامتة .. ؟ قولى ما فى نفسك ..»

قالت ليلى : «جئت المدينة فى مهمة تتعلق برملة بنت عبدالله بن الزبير ، ولكن حال أخيها يحول دون الغرض من السؤال عنها .. هل هى معه فى مكة ..؟»

قالت عزة : «نعم هى معه هناك ، وأظنهم فى أشد الضيق من الحصار ، وقد قل زادهم ، ولا ندرى ما يؤول إليه أمرهم» .

قالت ليلى : «لا أخفى عنك أن أميرا من أكبر أمراء بنى أمية انتدبنى للبحث عن رملة واستطلاع أحوالها لأنه يريد خطبتها ، فلم أجد من يصف لى جمالها سواك لأنك عاشرتها وعرفتها .. فماذا تقولين ؟ ..»

قالت عزة : «.. ان رملة من أحسن النساء خلقا وعقلا ودراية . ولكننى أعجب لإقدام أمير من بنى أمية على خطبتها ، والحرب قائمة بين الأمويين وبين أخيها كما تعلمين ..»

قالت ليلى : «إن الأمير الذى يبغى خطبتها أحسن أمراء بنى أمية علما وشعرا وفصاحة ، وله ولع بعلم الكيمياء ، وهو ابن خليفة وحفيد خليفة ..»

فقطعت عزة كلامها قائلة : «قد عرفته .. انه خالد بن يزيد .. أليس هو .. ؟»

قالت ليلى : «هو بعينه ، فما قولك ؟ ..»

فأطرقت عزة هنيهة ، ثم قالت : «قد أدركت سر الأمر ، وعلمت السبب الذى سوغ لخالد خطبة رملة وهى من أعداء بنى أمية وإن كان هو أمويا ..»

قالت ليلى : «أما وقد فهمت سر الأمر ، فاكتميه .. وهذه هدية من خالد بعث بها إليك» ، قالت ذلك ومدت دها إلى كمها، وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعته إليها .

ثم تحفزت ليلى للقيام ، فأمسكتها عزة ودعتها للبقاء عندها .. فاعتذرت بأن شخصا ينتظرها فى مكان ، ولابد لها من موافاته لأمر لا يحسن تأجيله .

وكانت ليلى الأخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والأمراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجائزة .. وكانت قد وفدت على عبدالملك بن مروان أحد ملوك بنى أمية فى ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت إلى خالد فعهد إليها بالبحث عن رملة ومعرفة أوصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن ، كان فى جملة من جاء مع

عبدالملك بن مروان عند عودته من العراق إلى الشام بعد مقتل مصعب بن الزبير وخروج العراق من سلطة بن الزبير.

وكان حسن فى جملة رجال مصعب بن الزبير القائلين بقوله الداعين إلى دعوة أخيه فى العراق ، وحارب معه فى قتاله المختار بن عبيد الثقفى فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبدالملك بن مروان لحرب مصعب، دافع حسن عنه جهده ، ثم وقع فى أسر عبدالملك بن مروان ورافقه إلى الشام . فلقى هناك خالدا ، فأحبه خالد وجعله من بطانته ، وكان يثق به ويبوح له بما فى نفسه على عبدالملك بن مروان لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها ، لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية .

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، وكتب إلى أخيها عبدالله بن الزبير يخطبها منه .. وسلم الكتاب إلى حسن وأرسله مع ليلى وأوصاه إذا أمرته ليلى بالذهاب إلى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب إلى عبدالله بن الزبير ، ويبذل جهده فى اقناعه . وكان حسن يحب خالدا حبا شديدا ، فعزم على أن يبذل ما فى وسعه لتحقيق رغبته .. فأسرع مع ليلى حتى وصلا إلى المدينة .

أما ليلى ، فلما غادرت منزل عزة ، سارت لمقابلة حسن .. فلقيته فى انتظارها، فأخبرته بما دار بينها وبين عزة ، وأوعزت إليه أن يسافر إلى مكة .

وكان حسن يحب فتاة عرفها منذ أعوام ، وأنقذها من الموت هى ووالدها فى العراق فى أثناء محاربتهم المختار بن عبيد ، وقد عاهدها على الحب وهو يعلم أنها تقيم فى المدينة ، ولكنه لا يعرف منزلها .. لم ير خيرا من أن يستطلع عزة فإنها أخبر نساء المدينة بنسائها . فسار إلى عزة وكانت لا تزال جالسة .

واعتذر عن جسارته ، ثم قال : «إنى قادم إليك فى أمر أقلقنى ، وليس لى من يفرج كربى سواك» .

قالت عزة : «قل ما بدا لك ..»

قال حسن : «انى أحب فتاة من أهل المدينة ، ولكننى لا أعرف منزلها ولا أدرى هل هى مقيمة هنا أم سافرت إلى بلد آخر ، اسمها سمية بنت عرفجة الثقفى»

فبهتت عزة عند سماعها ذلك الاسم ، وقالت : «من أين عرفتها ، وكيف أحببتها وأنت بعيد عن المدينة ؟ ..»

قال حسن : «قولى لى أولا .. هل هى فى المدينة ؟ .. وهل تعرفينها جيدا ؟ ..»

قالت عزة : «أعرفها كما أعرف نفسى وهى مقيمة هنا ، وكانت عندى فى هذا المساء .. فقل لى من أين عرفتها ؟ ..» .

قال حسن : «إنى من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه إلى العراق لمحاربة المختار بن عبيد الثقفى» .

قالت عزة : «ولكن المختار هذا كان يدعو الناس إلى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه» .

قال حسن : «نعم .. ولكنه لما فاز فى حروبه طمع فى الأمر لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية . ولا أشك أن محمدا لم يكلفه بشئ من ذلك لأنه زعم لمحمد ما لا يرضى به» .

قالت عزة : «أظنك تعنى الكرسى الذى زعم انه كرسى على ، وصار يحمله معه فى حروبه ويزعم أن جبريل يظهر له ويكلمه» .

قال حسن : «نعم أعنى ذلك ، ولكنه لم يفلح لأن عبدالله بن الزبير لما سمع بما فعله المختار ، بعث إليه مصعبا ومعه جند فحاربوه وقتلوه وسمروا يده فى مسجد الكوفة ، وكنت أنا فى جملة رجال مصعب .. ففى يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر ، لقيت عرفجة والد سمية طريحا على الأرض بين يدى بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته (قال ذلك وتنهد) قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها فوقع بصرها على بصرى ، فلما رأيتها اهتز قلبى ، وسمعتها تستنجدنى لإنقاذ والدها من القتل . فصحت فى الرجال فأبعدتهم عنه ، وخلصته وأوصلته إلى مأمنه ، فشكرنى وقال إنه لا يقدر على مكافأتى . فقلت لا ألتمس مكافأة منك إلا أن تزوجنى ابنتك هذه ، فقال : «هى جارية بين يديك» . فتواعدنا على أن آتى المدينة وأتزوجها .. وأتممت أمر نجاتهما

فأخرجتهما من الكوفة ، وبعثت معهما من يرافقهما إلى هنا وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها .. فلم أستطع المجيء إلا اليوم» .

كشف السر

وكان حسن يتكلم وعزة تتشوق لسماع بقية الحديث .. فلما وصل إلى هذا الحد، قطعت كلامه قائلة : «ألعلك حسن .. ؟» .

قال حسن : «نعم .. وكيف عرفت ذلك ؟» .

قالت عزة : «عرفته منها .. أبشرك وأهنئك بهذه الفتاة ، فإنها زينة فتيات المدينة وليس أحد يعرف ما فى قلبها غيرى . ولطالما ذكرت اسمك لى سرا وأثنت على أفضالك . وكن واثقا أنها لا تزال على ودك» .

قال حسن : «وهل من سبيل لرؤيتها ؟..»

فأطرقت عزة ، ثم قالت : «لم يكن على أهون من مرضاتك لولا أن والدها ضنين بها ، لا يأذن بخروجها من البيت لأى سبب من الأسباب ، وإذا هى جاءتنى فإنما تجئ خلسة ، وربما أذن والدها بمجيئها إلى أحيانا . أما إذا عرف أنها جاءت لمثل ما تريده أنت فإنه يغضب .. وربما أساء إليها وآذاها ، وقد يؤذينى والرجل ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة» .

فلبث حسن مدة يفكر فى أمره ، وقد أيقن بالعقبات التى تحول دون مجئ سمية ، فصبر نفسه إلى صباح الغد حتى يذهب لزيارة والدها ، وهو يعهد فيه الميل له والرضى به ، فلما

عول على ذلك نهض فودع عزة واستدل منها على بيت عرفجة .

وبات حسن ، وأفاق قبل الفجر ، وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل .

وظل ماشيا وهو غارق فى بحار الهواجس حتى أشرف على بيت عرفجة ، وهو بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، ووصل إلى باب الدار فرآه مفتوحا ، فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطل على ساحة تحيط بها ثلاث غرف .. وفى أحد جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب ، وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها إليها ووجهها إلى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل من الباب . وحين وقع بصره عليها ، علم أنها سمية مع أنه رأى أنها تغيرت عما رسم فى ذهنه من صورتها ، ولكن قلبه دله على صاحبته فندم على دخوله بغتة ، ولكن الشوق أعمى بصيرته ، فوقف مبهوتا وقلبه يخفق ..

ثم غلب عليه الحياء وخاف أن يقع نظرها عليه فتخجل .. فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت معلقة به ، ولبث ينتظر من يدعوه للدخول أو من يأتى لاستقباله . فسمع – وهو فى الانتظار – حركة مشى فى الساحة ، فأدرك أن سمية مشيت إلى إحدى الغرف لتتوارى عن الطارق . وظل هو واقفا مدة فلم يأته أحد ، فأعاد القرع مثنى وثلاث ، وبعد وهلة

سمع وقع أقدام رجل . ثم جاءه رجل فى نحو الخمسين من عمره، قصير القامة ، نحيف الجسم يكاد جلده يلتصق بعظمه شعر لحيته خفيف ، وعلى رأسه عمامة صغيرة .. وأنفه كتلة بارزة فى منتصف وجهه ، وله عينان غائرتان .

فلما وقع نظر حسن على الرجل ، عرف أنه عرفجة والد خطيبته ، وأما عرفجة فلبث برهة ينظر إلى وجه حسن وهو يتجاهله . فلما رأى حسن منه ذلك حمله منه على محمل النسيان، فضحك وتقدم وألقى التحية .. فرد عجرفة التحية ولم يتغير وجهه بما يدل على بغتة أو استغراب ، فقال حسن : «أظنك لم تعرفنى يا عماه ..»

فلما سمع عرفجة كلامه ابتسم ، وألقى بنفسه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول : «أهلا بك يا بنى يا حسن» ، فاستأنس حسن بذلك الترحاب . ابتدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، فأخبره عن قدومه إلى المدينة للقياه .. وفتح له قلبه وأطلعه على شدة شوقه لسمية .

وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو عليه من استحسان أو استهجان ، فلم يجد فيه إلا انعطافا وترحابا . ومما قاله عرفجة أن سمية بخير ، وانها مازالت تذكر فضله عليهما .. فتوقع أن يدعو سمية لتراه فلم يدعها ، فظنه أجل ذلك إلى ما بعد الاستراحة .

واستغرقا فى الحديث فى شئون مختلفة حتى تطرقا إلى سبب

قدومه إلى المدينة ، فأخبره حسن أنه إنما جاء بمهمة من خالد بن يزيد إلى عبد الله بن الزبير . ثم قال : « ألم يئن لى أن أحقق أمنيتى التى وعدت نفسى بها منذ أعوام ؟» .

قال عرفجة : « وماهى يا بنى ؟» .

قال حسن : « هى سمية خطيبتى .. » .

قال عرفجة : « هى جاريتك وطوع إرادتك ، ولكنك تقول إنك ذاهب إلى مكة فمتى عدت من مهمتك كانت هى لك . وأما الآن فإنها ليست هنا ، وقد ذهبت ومتى عادت أخبرتها بقدومك .. ولا أشك أنها تسر بلقياك ، فاذهب الآن فى مهمتك ومتى عدت فسيعقد العقد وتكون هى لك » .

فعجب حسن لإنكار عرفجة وجود سمية فى المنزل ، ولكنه التمس له عذرا .

وسكت كلاهما لحظة ، وكل يفكر فى شأنه ، ثم عاد عرفجة إلى الكلام ، فقال : «ومتى عزمت على المسير إلى مكة يا بنى ؟» .

قال حسن : « فى القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة» .

قال عرفجة : « سرعة ذهابك تقرب زمن زواجك ونتشرف بمصاهرتك» .

فسر حسن بما سمعه .. ولم يفطن لما كان يبدو فى عينى عرفجة من دلائل الخبث والغدر .. فلم يخطر فى باله أن عرفجة يتردد فى إجابة طلبه ، فاقتنع بسرعة المسير ، وقال : « أرى أن أخرج من المدينة الليلة» .

قال عرفجة : « اجعل خروجك لدى الغروب ومن الباب المؤدى إلى مكة ، فإنه أسهل مسلكا .. ولكننى أخاف عليك من برد الليل، فهل اتخذت الحيطة لذلك ؟» .

قال حسن : «عندى عباءة ألتف بها إذا برد الجو ».

قال عرفجة وهو يبتسم وكأنه اهتدى إلى سبيل لتنفيذ مقصده : « لا أرى أن تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ، ومن كان مثلك من ذوى الوجاهة لا يليق أن يمر فى الأسواق ملتفا بعباءة .. فاسمح لى أن أقدم لك ما يليق بمقامك» ، قال ذلك وصفق ، فجاءه غلام فقال : « أحضر الرداء أو المعطف الأخضر المعلق فى الحجرة » .

فعاد الغلام وعلى يديه معطف من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه إليه ، وقال له : «البسه وأنت خارج على ناقتك فى هذا المساء، فإنه يقيك شر البرد » .

فسار حسن حتى انتهى إلى الطرف الآخر من المدينة ، فأقبل إلى حانوت أمامه دكة ، وفى صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه النبال وفيها المبرى .

فانتقى ما احتاج إليه منها ودفع الثمن ، وبينما هو يهم بمغادره الحانوت وقع بصره على شاب استأنس برؤيته وتذكر أنه يعرفه . فجعل يتأمله يستحث ذاكرته لعله يذكره ، ثم التفت الشاب إلى حسن فوقع بصره عليه ، فبغت وتفرس فى سحنته ولم يطل النظر إليه حتى ابتسم وصاح فيه : «حسن !» فقال حسن على الفور : « نعم ، وأنت ... سليمان ؟» قال : « نعم ..» وتعانقا وسلما سلاما حارا وجلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت ، فقال سليمان : « من أين أنت قادم يا أخى» .

قال حسن : « إنى قادم من دمشق ، وعازم على السفر الليلة» .

قال سليمان : « لا .. لا .. لاتسافر لأنى مشتاق إلى رؤيتك ، وأتذكر أياما قضيناها فى الكوفة معا ، وكانت أياما سعيدة ولو أنها كانت ممزوجة بالحرب والقتال » .

قال حسن : « لاريب أنها كانت سعيدة عليكم لأنكم فزتم بالأمر الذى قمتم له ، وقتلتم قتلة الإمام الحسين شر قتله .. أظنك لاتنسى منظر بن زياد وهو مقتول» .

قال سليمان : « لا أنسى منظره ولا أستطيع نسيانه ، ولكننى لم أفرح بمقتل ابن زياد بمقدار فرحى بمقتل ذلك الأبرص الذى قطع رأس الحسين بيده ...» .

قال حسن : « أظنك تعنى شمر بن ذى الجوشن ، قبحه الله.. » .

وقد شغل حسن بصديقه حتى أنه نسى الرداء الذى اعطاه له أبو سمية وهو لم يعتد حمله .

المرافقة

وكان سليمان هذا صديقا لحسن ، عرفه منذ أيام الصبا . وأقام سليمان مع أبيه فى الكوفة فى جملة دعاة الحسين . فلما قدم الحسين إلى الكوفة ، كان هو وأبوه من جملة الذين تخلفوا عن نصرته . فلما قتل الحسين فى سهل كربلاء ، أصبح سليمان وأبوه من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين ، وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه . ولما جاء المختار بن أبى عبيد الثقفى إلى الكوفة يدعو الناس إلى بيعة عبدالله بن الزبير ، انضم التوابون فى جملتهم فقتلوا قتلة الحسين . ولما طمع المختار فى الخلافة لنفسه ، أرسل عبدالله بن الزبير أخاه مصعبا لمحاربته - وكان حسن مع مصعب - فلما انتصر مصعب على المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم إلى مصعب وفى جملتهم سليمان وأبوه .

وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن . فلما جاء عبدالملك بن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سار حسن مع

عبدالملك بن مروان كما تقدم ، وجاء سليمان وأبوه إلى المدينة فأقاما فيها فلما تلاقى حسن وسليمان فى المدينة على هذه الصورة، لم يصدق سليمان أنه لقى صديقه حسنا ، فأحب البقاء معه . فلما مشيا دعاه سليمان إلى منزله ، وقال له : « إن أبى يسر بلقياك» فتذكر حسن أبا سليمان ، فقال : « فاتنى أن أسأل عن أبيك ، وكيف هو ؟ .. وما الذى يعمله الآن ؟» .

قال سليمان : « إنه فى خدمة طارق بن عمر حاكم هذه المدينة من قبل عبدالملك بن مروان» .

وكانا يتكلمان ، وهما يسيران ، حتى وصلا إلى بيت سليمان، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر لاضطراره إلى الذهاب لوداع ليلى الأخيلية فى بيت سكينة بنت الحسين ، وفى نفسه أنه يود لو استطاع مشاهدة سمية لأن بيتها بجانب بيت سكينة ..

فأمسكه سليمان وتوسل إليه أن يؤجل سفره إلى الغد ، فاعتذر فقال له سليمان: « إذا لم يكن بد من سفرك فإنى أرافقك فى أول الطريق ، فإذا رضيت برفقتى فإنى أصاحبك إلى العقيق ، فنمكث هناك ساعة أسعد بحديثك ثم نفترق » ..

قال حسن : « كيف لا أرضى بذلك ، وفيه راحتى وسرورى ؟» .

قال سليمان : «إذن أين نلتقى ؟» .

قال حسن : «نلتقى بباب المدينة المؤدى إلى مكة ، ونخرج من هناك معاً» ..

قال سليمان : «وهل تعرف الطريق إلى الباب ؟» .

قال حسن : «نعم أعرفه ، فإنه على مقربة من حانوت النبال الذى اشتريت منه هذه النبال اليوم» .

ولما ذكر النبال تذكر الرداء ، فبغت وقال : «لقد نسيت عند رداء عند حانوت النبال، وأخاف إذا أردت الذهاب إليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى » .

فابتدره سليمان قائلا : « دع هذا الى ، فأنا أمر بالنبال وآخذ الرداء منه وأحفظه لك .. إلى الملتقى .. » .

فشكره حسن وودعه وخرجا ، فسار كل فى طريقه .

سمية ووالدها

أما عن سمية ، فقد دخل حبيبها بيتها بعد غيابه بضع سنوات . واتفق فى ذلك الصباح أنه لم يكن فى البيت أحد من الرجال غير عرفجة ، وكان مشغولا فى حجرة خاصة له ، لايدخلها أحد غيره .. فإذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ، ولا يدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك . فلما قرع حسن الباب ، كان عرفجة هناك فأبطأ فى فتح الباب .

فلما فتح الباب ودخل وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، كانت سمية تنظر من ثقب فى باب غرفتها ، فوقع بصرها عليه ، وهى أول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل . ولم تكد تتحقق منه حتى شعرت بهزة قوية ، وخفق قلبها ، ولكنها ظنت نفسها مخطئة، فتفرست فيه جيدا فإذا هو حسن بعينه ، ورأت أباها يخاطبه ويرحب به ، ولكنها لم تسمع الكلام لبعد المسافة خاصة بعد أن دخلا وأقفلا الباب .. وطلبت من جاريتها أن تتسمع من جانب تلك الغرفة وتعود إليها بما سمعته . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور ، فأطلعت سمية بما دار بينهما حرفيا . فساءها أن يأبى أبوها أن يريه إياها ولو من وراء حجاب ..ولكنها فرحت إذ رأته واطمأن بالها إلى أنه لايزال على حبها ، ولما أخبرتها الجارية أنه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها ، وظلت ترجو أن يعود حسن إلى طلب رؤيتها فيأذن لها والدها ، ولكنها ما لبثت أن علمت أنه غير الحديث وعول على الخروج من المدينة فى تلك الليلة ، وقد حبب إليه عرفجة الإسراع فى ذلك وأعطاه الرداء الصوف وعجبت لإلحاحه عليه يأخذه وهى تعلم أنه بخيل .. على أن ذلك أكد لها رضاه عن تلك الخطبة ، فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة .

فلما خرج حسن تبعه عرفجة لوداعه ، فلما رأت والدها راجعا خرجت من الغرفة لتلقاه ، وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب فى وجهها . فلما رآها عرفجة على تلك الحال، انقبضت نفسه وتظاهر أنه فى شغل عن الحديث معها .

أما هى ، فلم تكن تصبر عن استطلاع أفكاره .. ولكنها أمسكت عن الكلام تهيبا لأنها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه ، فتحولت إلى حجرتها وهى منقبضة النفس ، ودخل عرفجة حجرة أخرى وقد لحظ ما فى نفس ابنته ، ولم يفته إطلاعها على ما دار بينه وبين حسن .. فبعث إليها .. فلما جاءت وقفت وقلبها يخفق وهى لاتستطيع التطلع إلى أبيها ولا تدرى ما يريد منها .

أخذ والدها ينظر إليها ويتأمل حركاتها ، فتأكد من تعلقها بذلك الشاب وهو لايحب أن يتقرب منه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على أنه كثيرا ما حاول أن يزوجها بسواه فلم تقبل . فلما طال غياب حسن عن المدينة ظنه مات أو قتل أو أنه أعرض عنها وتعلق بغيرها . فلما رآه فى ذلك الصباح استعاذ بالله ، ولكنه عمد إلى الخبث والرياء ، فتغلب على عواطفه وأظهر له ما أظهره من اللطف والأنس على أمل أن يفتك به فيما بعد فلما رأى سمية فى ذلك الاضطراب قال لها : «أراك يا سمية مضطربة ... ما الذى دعاك إلى هذا الاضطراب ؟» .

فلما سمعت سؤال والدها أجابت : « أتسألنى يا أبتاه وأنت أعلم الناس بسبب ذلك ؟» .

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : « أظنك تحبين هذا الشاب ؟» .

قالت : « لا أقول إنى أحبه ، ولكننى أعلم فضله علينا لأنه أنقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به ، أفلا نفى بالوعد ؟» .

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر ، وهى تنظر فى وجه والدها ، لأنها أغفلت أمر الحب وطالبته بحق شرعى عليه ، وكانت تتوقع أن يكون جوابه الإذعان الصريح . ولكنها رأته يتبسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه وقال : « ما شاء الله .. وأى فضل تعنين يا سمية ؟» .

قالت : « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن فى الكوفة ؟ ألم أخرج إليه محلولة الشعر وأطلب منه نجاتك فأسرع إلى إنقاذك ؟ .. ولا أراك تنكر ذلك عليه إلى الآن » ، قالت ذلك وهى تنظر فى وجهه بطرف عينيها ، فإذا سحنته قد تغيرت ، وبان الشر فى عينيه ، وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به إلى الأرض من شدة الغيظ ، وقال : « لا أقدر على سماع هذا الكلام .. إن الذى يدعى علينا مثل هذا الفضل يجب أن يموت» .

فلما سمعت سمية ذكر الموت اقشعر بدنها وامتقع لونها ، ونظرت إلى والدها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه بالحنان الأبوى .. وهى لا تصدق أنه يعنى ما يقول .

أما هو فقال لها : « لو كنت تحبين والدك ما رضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ .. وتقولين ذلك جهارا ، لاشك أنك تحبينه أكثر مما تحبينني ؟» .

فقالت والبكاء يخنق صوتها : « كيف تقول ذلك يا أبتاه وأنت تعلم قلبى وتعلم أنى لا أحب أحدا سواك ؟ .. وأما هذا الشاب فإن له علينا فضلا لاينكر ، هل نسيت الخطر الذى كنا فيه ، وكيف أنقذنا واهتم بنا حتى وصلنا إلى هذا المكان ؟ .. وأنت الذى وعدته بزواجى .. فإذا كنت أنا أحببه فإنما تكون أنت الذى دعوتنى إلى ذلك و..» .

فقطع عرفجة كلامها وقال : « إلى هذا الحد بلغت وقاحتك حتى تقولى لى إنك تحبينه وتعيدى ذكر فضله ؟ .. وذكر هذا الفضل وحده يدعونى إلى قتله .. » .

فاقشعر بدن سمية واضطربت جوارحها فجثت عند قدمى عرفجة ، والدمع يتساقط على خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها ، وقالت : «وا رحمتاه يا سيدى .. بالله لا تذكر القتل .. دعه ، لا تقتله ولا غاية لى فيه .. فأنا لا أخرج عن

طاعتك فى أمر من الأمور .. افعل بى ما تشاء فإنى أطوع لك من بنانك .. اشفق على دموعى وارحمنى» .

فلما سمع تذللها ظن أنها عدلت عن محبته ، فأمسكها وأنهضها ومسح دموعها بيديه وقال لها : « خففى عنك يا بنية وكونى حكيمة عاقلة ، أخرجى أمر هذا الغلام من ذهنك ، وارجعى إلى أبيك ، واعلمى أنى لا أفعل إلا ما يضمن لك السعادة» .

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو إلى جانبها ، فاتكأت على صدره فتحقق أنها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد إلى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : «الحمد لله أنك فهمت ما أضمره لك ، كيف تعيشين مع رجل تعلمين أنه ذو فضل على أبيك» ؟

ولم تر سمية خيرا من السكوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها ، بل زادها تعلقا بحسن وبحياته خوفا عليه من والدها ، فعولت على السعى فى تحذيره . وفجأة قال لها : «قومى يا سمية وارجعى إلى رشدك ، فإنى سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن» .

وكان بين عرفجة وبين طارق بن عمرو حاكم المدينة يومئذ صداقة ودسائس ، وكان طارق يكرم عرفجة لأنه مثله من قبيلة

الحجاج ، وكان الحجاج قد أوصاه به خيرا حيث عرف سمية وطلب يدها فوعده عرفجة بذلك ، ولكنه استمهله ريثما يسترضيها ، ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك كرها.

رسول إلى سمية

وأما حسن ، فإنه ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود ناقته وراءه، وتوجه نحو بيت سكينة .. ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه وهو رجل اسمه عبدالله وأصله من الطائف ، وكان من جملة الأسرى بعد حرب العراق وقد دخل فى خدمة حسن عندما سمع بعزمه إلى المدينة رغبة منه فى السفر إلى أهله فى الطائف ، وكان عبدالله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ، ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله . ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية .. فلما رأى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه ، فخاطبه قائلا : « ما بال مولاى ؟ هل يفكر فى أمر نسيه فأقضيه ؟ ..» .

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر للحال ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة ، فلاح له أن يستدرجه فى الحديث عنه .. لعل ذلك يأتى بفائدة ، فقال له : « هل تعرف عرفجة يا عبدالله ؟» .

فأجاب عبدالله قائلا : « كيف لا أعرفه وهو والد سمية ؟ . وهو من قبيلتى ؟» .

فسر حسن ، وأراد أن يستخدم عبدالله فى الاتصال بسمية ، فقال : «إذن اسمع يا عبد الله .. أريد منك أن تسير إلى سمية فى مهمة ، ولكن يجب أن تفهم الغرض من تلك المهمة» .

فتبسم عبدالله ، وقال : « لا أحتاج إلى زيادة ايضاح ، فإن سمية مولاتى وأنت مولاى .. » .

فأعجب بلطف تعبيره ، وقال له : «اعلم أنى قدمت فى هذا الصباح إلى عرفجة وقضيت معه ساعة ، ولم أتمكن من مشاهدة سمية ، ونحن الآن فى طريقنا إلى مكة ، ولا ندرى متى نعود .. فهل أخرج من المدينة قبل أن أراها ؟ ..» .

فأرسل عبدالله بصره إلى بيت عرفجة ، وقال : « .. أتأذن لى بالدخول إلى هذا البيت ، فأحتال فى الاتصال بها لتحديد موعد ؟ .. أين تحب أن تتقابلا ؟» .

فقال : «إنى ذاهب إلى منزل سكينة ، وأنا أعلم أن سمية كثيرة التردد عليه ؟ وسكينة تحبها وتحترمها ، فإذا قلت لها أن تلقانى هناك الآن لكان خيرا» .

وانطلق عبدالله ، ثم مشى حسن حتى وصل إلى منزل سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب فرأى بجانب الباب زريبة فيها دواب من يقدم إليها من الوفود،

وبينها جمل ليلى الأخيلية .. فتحول إلى دار الضيافة لعله يرى ليلى هناك ، فيبقى معها ريثما تأتى سمية .. فتهيىء له السبيل لمقابلتها ، ولم تمضي لحظات حتي سمع عبدالله يناديه ، فالتفت إليه قائلاً : «ما وراءك ؟» ، فدنا عبدالله منه وقال : «لقد سألت عن سمية ، فقالوا لي إنها ذهبت إلي سكينة منذ برهة ، فسررت بذلك وأتيت لأخبرك» .

قال حسن : «لم أرها ، لعلها فى البيت مع النساء ، بورك فيك يا عبدالله ، امكث أنت بالباب حتي أخرج» .

قال عبدالله : سمعاً وطاعة» ..

لم يجد حسن وسيلة لمقابلة سمية غير ليلى ، فجاء إلى باب القاعة التي تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه رجلاً يقف وقوف الحاجب ، فقال له : «هل فى مجلس بنت الحسين أحد؟» .

قال الرجل : «إن مجلسها مليء بالناس ..» .

قال حسن : «وهل فيهم ليلى الأخيلية ؟» .

قال الرجل : «نعم» .

قال له حسن : «قل لها إن حسناً بالباب يدعوك إليه» .

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رحبت به .. » .

قال حسن : «أرجو مساعدتك هل تعرفين سمية بنت عرفجة ؟» .

قالت ليلى : «نعم .. أعرفها وقد رأيتها منذ برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها ، وسكينة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا .. وأنت ما شأنك بها ؟ ..» .

قال حسن : « شأنى بها شأن الخطيب وخطيبته ، فهل هى لاتزال هناك ؟ » .

قالت ليلى : « لقد سرنى أنك خطبتها فإنها زينة بنات المدينة .. وأما الآن فإنى أظنها هنا لأنى لم أرها قد خرجت . وعلى كل حال تعال معى فندخل القاعة ، فتمكث أنت مع الرجال ، وأدخل أنا إلى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة ، فأبحث عن سمية .. » .

فقطع كلامها قائلاً : « وأرجو أن تجمعينى بها ساعة لايرانا فيها أحد سواك لأنى خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت إلى المدينة بالأمس ، وها أنا أخرج منها الآن ولم أشاهدها أو أخاطبها » .

قالت ليلى : « لك على ذلك » .

مجلس الشعراء

فدخلت ليلى إلى مجلس سكينة ودخل حسن فى أثرها ..

ورأى فى القاعة جماعة ، قد تصدر منهم خمسة عليهم لباس البدو ، جلسوا فى صدر القاعة .. فقال حسن : « ومن هؤلاء المتصدرون ؟ .. » .

قالت ليلى : « هم الشعراء الفرزوق وجرير وكثير عزه وجميل بثينة ونصيب ... فها قد عرفت الشعراء وستسمع حديثهم وحديث سكينة معهم . اجلس على تلك الوسادة والتفت إلى هذه الناحية من حين لآخر لعلى أشير إليك بالخروج ؟» .

وجلس حسن ينظر ويسمع ، ولا يعجب من مثل ذلك المجلس ، لأن اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعا فى تلك الأيام . ونبغ من النساء شاعرات ماهرات ، منهن ليلى الاخيلية وغيرها .. وإنما استغرب حسن اهتمام سكينة ، على رفعة مقامها ، بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . على أنه كان مشغول البال لتأخر ليلى عنه . والتفت إلى الخلاء من نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت إلى الغروب ، فازداد قلقه مخافة أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة .

الفشل

خرجت ليلى أخيراً وأشارت إليه أن يتبعها ، فسار فى أثرها حتى خرجا من القاعة ، فبادرها قائلاً : «أين سمية ؟ ..»

فقالت له : « كانت فى هذا المجلس وخرجت قبل أن أراك ، فلعلها خرجت إلى بيت أبيها لأنها لا تستطيع الغياب طويلا عنه» .

ففكر حسن أنه لو أسرع بالخروج قد يلقى سمية فى الطريق ، أو فى البيت..

فخرج فوجد خادمه عبد الله فى انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد مالت إلى الغروب ، فاستحث جمله حتى دنا من حائط عرفجة .. ثم نادى عبد الله ، فوقف عبد الله بين يديه وهو يقول : «هل أسأل عن سمية لعلها عادت ؟» .

فاستحسن حسن نباهة خادمة ومشاركته لشعوره ، فابتسم ولم يجب .. فأسرع عبد الله إلى البيت ثم عاد وهو يقول : «إنها لم تعد يا سيدى » ..

قضى حسن برهة فى الهواجس وهو على جمله ، ثم انتبه فإذا بالظلام يتكاثف ، وتذكر صديقه سليمان وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة فى مرافقته .. فاستحث جمله وقد يئس من مشاهدة سمية....

اللقاء بغتة

مشى حسن بضع دقائق فأشرف على باب المدينة ، وفيما هو ينظر إلى ما وراء الباب ، إذا بشبح قد وقف له فى الطريق، وهو ينادى : «حسن» فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ولا غرو ، فإنه صوت الحبيب . فلما سمعه أمسك زمام جمله ونظر إلى الشبح فإذا هو امرأة ، فحدثه قلبه أنها سمية .. فوثب عن الجمل حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد أخذ بزمام الجمل وتشاغل بإصلاح الرحال ..

أما حسن فإنه نادى : «سمية ؟ ..».

قالت سمية : «نعم .. ومن هذا الذى معك ؟».

قال حسن : «هو خادم أمين فلا تخافى منه .. ما الذى جاء بك إلى هذا المكان فى هذا الليل .. ولكننى أخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب يسوءك» ، فتحيرت سمية كيف تجيب وماذا تقول ، فلبثت صامتة ، فازداد حسن قلقا فقال لها : «ما بالك ؟ قولى .. تكلمى ، لعلك علمت بذهابى إلى مكة فخفت على الخطر هناك».

فلما سمعت منه لفظ الخطر ، أجابته والبكاء يخنق صوتها : «نعم أخاف عليك ، وليس من مكة فقط بل ..» وشرقت بالدمع فانقطع صوتها .

فتقطع قلب حسن ، ومد يده فأمسك أناملها ، وهى أول مرة يقبض فيها على تلك الأنامل فاقشعر بدنه وقال لها: «بل ماذا ؟ .. هل تخافين على من أحد فى هذه المدينة أيضـــــا ؟ .. لا تخافى على بأسا طالما كنت أنت لى» ..

قالت سمية : «وإذا كنت أنا عدوتك ؟».

فقال : «أفصحى يا سمية .. قولى ، ممن تخافين على ؟ ، فقد نفد صبرى» .

قالت سمية : «أقول بعد أن ألتمس منك العذر ، لأنى أعد قولى عقوقا لا يليق ببنات الناس .. ولكننى أسيرة حبك ، لا أرى لى سعادة إلا بك» .

فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده ، فقال : «قد فهمت ما تريدين .. إنك تخافين على من أبيك» .

قالت سمية : «نعم» .

فقال حسن : «فإذا كنت تحبيننى ، وأنا أحبك .. فمن ذا يحول بينى وبينك ؟» .

وصمت برهة وقد عظم عليه الأمر ، ثم قال : «وما الذى دعا والدك إلى بغضى وإلحاق الأذى بى ، وأنا لم أرتكب لديه منكرا ولا أسأت إليه» .

قالت سمية : «ذنبك أنك أحسنت إليه .. أو لعل ذلك من سوء حظك . ما لنا ولهذا ، إن الوقت لا يأذن بطول الشرح .. فأخبرك أن والدى لا يريدك ، وأخاف أن يسعى فى أذيتك ..وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ، ولم أستطع صبرا عن إطلاعك على الحقيقة لتكون على بصيرة» .

قال حسن : «أما أن أصاب بالأذى ، فهذا ما لا أخشاه بإذن الله ولكننى أخاف أن يلحق بك أنت الأذى ..» .

قالت سمية : «أما أنا فقد أظهرت له الطاعة والرضا ريثما أراك، ثم أفعل ما تأمرنى به ..» .

فأطرق حسن ، ثم قال : «أما أنا فإنى مغلول اليدين بما أخذته على نفسى من أمر السفر إلى مكة عاجلا وبعدها أعود ونعيش معاً ..»

ثم نادى عبد الله ، وقال له : «رافق سمية إلى بيت سكينة ، والحقنى فى الطريق» .

فركب حسن جمله وساقه إلى باب المدينة ولم يكن مغلقا ، فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان .

فخرج وهو يمشى الهوينى حتى سمع جعجعة جمل عن بعد ، فجعجع جمله فاستوقفه ، وحول الزمام إلى جهة الصوت .

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى فسمع صوتا عميقا وعرف جهته .. فترجل عن الجمل وشده إلى نخلة ومشى على قدميه وهو يتلمس الأرض مخافة أن يخوض فى الأوحال حتى تحول عن الطريق الأصلى إلى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جملا معقولا وشبحا متوسدا إلى جانبه ، وفوق رأس الشبح شبح آخر يبكى وينتحب . فاختبأ حسن فى منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد ، فسمع صوتا يقول: «ياتعاستى وشقائى .. لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى .. أظننى أستحق هذا القصاص ، وأما أنت فما ذنبك .. ؟ تبا لى ما أتعس حظى، ولدى حبيبى .. كلمنى يا سليمان .. سليمان ... سليمان ..» .

فلما سمع حسن ذكر سليمان علم أنه صديقه ، فاقشعر بدنه لئلا يكون قد أصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى أقبل على الشبحين ولم ينتبه له أحد .

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : «لا تحزن يا أبى ، فقد ذهبت فداء لصديق لى هو أحق منى بالحياة » .

فقال الآخر : «أظنك ذهبت بذنبى أنا الشقى لأننى لم أف لله بعهده .. عاهدت الله على النصر للحسين والمقاتلة فى سبيله ،

وجعلت نفسى فى عداد التوابين ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيرا ما رأيتك لا ترضى بذلك وأنا لا أصغى لك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبى ..»

فتحقق حسن أن الراقد سليمان وأنه فى ضيق ، فلم يتمالك عن الصياح : «سليمان ..»

فوقف للحال الرجل الجالس ، وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه ، وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة .. وما هى لحظات حتى كان حسن بين يديه ، وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه الرداء وقد تلطخ بالدم فتفرس فى عينيه ، فإذا هو يفتحهما بصعوبة ويتألم ، فأمسك حسن بيده وقال له :

«سليمان أخى .. سليمان ..» .

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذنى ذلك الجريح ، ففتح عينيه وصاح : «حسن .. حبيبى حسن .. أشكر الله أنى تحملت عنك الموت ..» .

ولم يقل سليمان ذلك حتى تقدم الرجل الآخر ، ونادى :

«حسن .. أنت حسن .. يا لله ما هذه المصيبة التى وقعت فيها من أجلك ، ولكن الذنب ليس ذنبك وإنما هو ذنبى أنا الشقى التعس » .

العلاج

فعلم حسن للحال أن الكهل هو والد سليمان ، وأدرك أنه كان يترصده .. فأصاب سليمان خطأ ، فاهتم حسن أولا بأمر سليمان، فحاول أن يجلسه وقال لأبيه : «إلى بالماء» فجاءه بشئ منه من مستنقع قريب ، فرش به سليمان وغسل مكان الجرح فى أعلى الصدر ، وكان قد أصيب بنبلة جذبها أبوه منه ، وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الأموى فى دمشق ، لأن خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش . وكان عالما بصناعة الكيمياء والطب متقنا لهما ، وألف فى ذلك الكتب والرسائل ، ولم يكن مجلس خالد فى دمشق يخلو من أهل العلم ، فكان حسن يجالسهم ويسمع أقوالهم فاستفاد من ذلك بعض الفائدة . فلما غسل جرح سليمان ضغط على الجرح ، وأمر أبا سليمان باشعال النار فى كومة من الوقود ، فلما تحول الوقود رمادا، أخذ بعضه ووضعه فوق الجرح وربطه .

ثم سأل عن ماء للشرب ، فقال الرجل : «ليس معى قربة» .

فقال حسن : «أسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتى» ثم تحول نحو النخلة التى عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك ،

فطار صوابه ، لأن كتاب خالد بن يزيد فى جيب الغطاء الذى فوق الجمل .. خبأه هناك حرصا عليه ، فضلا عن أن الجمل عزيز لديه، وعليه عدته وثيابه والماء وكل شئ . فلما افتقده على تلك الصورة بغت ، فنظر فى آثار الجمل فوجد الرباط محلولا حلا لا يدل على عنف ، فتبادر إلى ذهنه أنه لم يربطه ربطا متينا ففر الجمل . وأخذ ينظر فى الخلاء حتى رأى شبحا فتفرس حسن فى الشبح فإذا هو جمله بعينه ، فسار فى أثره .. حتى توارى عن بصره وراء التلال.

وفيما هو يركض ويلهث ، إذا هو يلتقى بشيخ يمشى وعليه لباس الرعاة عارى الرأى .. وخشونة البداوة بادية على وجهه مع شدة الظلام . فناداه حسن : «ياأخا العرب ، هل رأيت بعيرا راكضا من هنا ؟» .

قال الشيخ : «نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادى ، ولا تخف عليه فإنى ضامن لك رجوعه لأنى أعرف رجال هذا الحى وهم يعرفوننى .. والإبل لا تزال سارحة هناك ، ولا خوف عليها بإذن الله» .

***

صمت الراعى برهة ثم قال : «انتظرنى هنا ريثما آتيك به» . قال ذلك ومضى حتى انحدر فى الوادى ، وتوارى – بعد قليل –

عن النظر ، فجلس حسن تحت الشجرة ، ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان.

ولما طال انتظاره ، مل الوقوف .. مشى على غير هدى وهو لا يخشى أن يضل الطريق لأن الشجرة تهديه إلى المكان ولو عن بعد ، ثم انحدر فى الوادى وهو يتلمس الأرض ولا يرى الطريق .. فلما طال به المسير ولم يهتد إلى شئ ، ندم لمغادرته مكانه .

على أنه لم يمض وقت طويل ، حتى سمع نباح كلاب فى الوادى فالتفت إلى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا ، فسار نحوه ، فعلم أنه على مقربة من بعض قرى ذلك الوادى «وادى القرى» ، وفيه قرى كثيرة منتشرة . به فإذا هو فى واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش .. ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فتابع سيره نحوها فرأى شبحا يعدو من الوادى كأنه غزال نافر ، فلما اقترب منه علم أنه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : «ما وراءك يا أخا العرب ؟ .. أين الجمل ؟» .

فقال الراعى : «ما الذى جاء بك إلى هذا المكان ؟» .

فقطع حسن كلامه قائلا : «قل لى أين الجمل ؟».

قال الراعى : «لم أعثر عليه فى المكان الذى كنت أظنه فيه ، ويغلب على ظنى أنه سار إلى العقيق ، وهو ماء يخرج أهل المدينة

إليه فيقيمون عنده ساعات أو بضعة أيام فى خيام يحملونها معهم وربما ذبحوا الذبائح وأقاموا الولائم . فالعقيق مجتمع أهل الرخاء . لا تغضب يا سيدى ، أننا سنسير الآن جنوبا نحو المدينة» ..

اقتفاء الاثر

قضى حسن زمنا وهو سائر فى أثر الراعى حتى رأى نجم الصبح قد طلع فعلم أن الفجر قد دنا ، ثم رأى الراعى يقف وهو يشير إليه قائلاً : «أننا الآن على ضفاف العقيق .. ولسنا نرى شيئاً سوى آثار أناس كانوا هنا ورحلوا فى أوائل الليل .. فاجلس على هذا الحجر وأغسل رجليك فى هذا الماء ، واسترح ريثما آتيك بالخبر».

قال ذلك ، وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى . فعاد إلى هواجسه وقلقه على صديقه سليمان ، ولكنه ما لبث أن سمع الشيخ يناديه ، فنهض وأسرع حتى دنا منه فأراه الراعى آثار أقدام جمله الهارب فنظر حسن إلى ما حوله وتحقق مما كان يسمعه عن مهارة أهل البادية فى اقتفاء الأثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ .. فإذا هو قد مشى خطوات قليلة ، ثم قال : «انظر إلى هذه الخطوات فإنها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا كأنه يسير طرادا .. يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها .. ويظهر لى أن الجمل عاد إلى المدينة» .

ثم قال : «أستأذنك فى العودة إلى ماشيتى وهى وحدها ليس معها سوى غلام وأمه تركتهما لحراستها » .

***

فأثنى حسن على الشيخ وودعه ، وسار يلتمس المدينة وقد أنهكه التعب والقلق وأحس بالجوع ، فعزم على أن يسير توا إلى المسجد للصلاة ، وبعدئذ يبحث عن الجمل ، ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الإشارة إلى الفتك به .. فمال إلى استطلاع سر والد سليمان قبل أن يدخل المدينة لئلا يكون ثمة ما يمنعه من دخولها ، فسار يلتمس المكان الذى تركهما فيه بالأمس .. فأشرف على أكمة قرب سور المدينة ، فرأى قرب المستنقعات شيئاً كالجمل البارك ، ثم ما لبث أن سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فإذا هو جمله بعينه .. وقد وقع عند حافة المستنقع وكسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ، ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره فتحقق أنه جمله وأنه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه ، وود لو أن الراعى رافقه إلى هناك ليهبه الجمل فينحره لأهله .. ولكنه فكر فى ما كان يحمله الجمل ، وخصوصا كتاب خالد بن يزيد ، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة، وقال فى نفسه : «لم يعد شئ أبغيه فى المدينة الآن » ووقف برهة ثم مشى نحو الجهة

التى ترك فيها سليمان مطروحا ووالده بجانبه ، فرأى المكان خاليا إلا من آثار الدم على صخر ، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه، فإذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فعجب لتمزقه ..

ثم فكر فى أمر سليمان والكتاب ، فقال فى نفسه :

«لعل والد سليمان عثر على الجمل وهو سائر إلى المدينة ، فلما رآه مصابا حمل ما يحمله الجمل على نية أن يدفعه إلى عند اللقاء» ، فارتاح حسن إلى تلك الفكرة وهدأ اضطرابه ، وبدا له أن والد سليمان حمل ابنه إلى منزله فى المدينة لعلاجه ، فعول على الذهاب إليه ..

***

وفيما هو يسير نحو المدينة ، رأى غبارا يتطاير فى الأفق فى طريق مكة ، فوقف برهة ، فإذا به يرى ثلاثة من الإبل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الهجن سوقا عنيفا ، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم أنها ابل البريد .. فمكث هنيهة ريثما يمر البريد ، فعلم من لباس الرجال ومظهرهم أنهم من العراق وأن هذا البريد هو بريد الحجاج بن يوسف إلى نائبه فى المدينة .

سليمان وأبوه

فلما مر البريد ، سار هو فى أثره يلتمس بيت سليمان فوصل إليه بعد زمن قصير ، فاستفهم عن سليمان .. فقيل له إنه مريض ،

فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان متوسدا وأبوه إلى جانبه، فلما أدخل ، جلس على طرف الفراش إلى جانبه ، وجعل يسأله عن حاله فقال له إنه أحسن كثيراً وأن الفضل فى شفائه يرجع إليه . فقال حسن : «ولا أظن أن المصيبة جاءتك إلا على يدى» .

فقال سليمان : «أشكر الله لأنه نجاك من هذا الخطر أيضا» .

فتقدم والد سليمان للحال ، والدمع ملء عينيه ، وقبل حسنا وقال له : «ألا غفرت زلتى يا بنى ، فإن الله قد هددنى بالقصاص بموت ابنى ووحيدى ، ولكننى أشكره على السلامة ، ولأنه أكسبنى ابنا آخر ..» .

ثم سأله سليمان ووالده عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم ووالد سليمان يصغى إليه وهو مثبت بصره فيه ، وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث ، وذكر العثور على الجمل وضياع حمولته ، قال : «فلما رأيت جملى بلا رحل على مقربة من المكان الذى كنا فيه ، ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه مصابا فحملتم ما يحمله معكم لتحفظوه لى .. فهل صادف ظنى مكانه ؟» .

قال والد سليمان : « كلا يا ولدى ، فإننا عدنا فى الليل .. وأنت هل وصلت إلى المكان الذى كنا فيه ؟» .

قال حسن : «نعم ووجدت رداء ممزقاً وعليه آثار الدم ، فعجبت لتمزيقه » .

فقال الرجل : «لا تعجب يا ولدى لتمزيقه لأنه مزق قلبى فانتقمت منه» .

فاستغرب حسن ذلك ، وقال «أتوسل إليك أن تقص على خبر هذا الرداء ..»

فقال والد سليمان : «اعفنى من خبره ، واقنع بما قلته » ..

قال حسن : «وماذا قلت ؟» .

فقال والد سليمان : «ألم أقل أن هذا الرداء هو الذى مزق قلبى لأنه كان دليلى إلى الفريسة المطلوبة ، فإذا هى ولدى وفلذة كبدى» .

انكشاف الحقيقة

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع الشك عنده ، وتذكر أنه ليس من يعلم بوجود ذلك الرداء معه غير عمه عرفجة لأنه أخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاكتنفته الشكوك ، وظل برهة صامتاً لا يتكلم .. ثم قال : «ألا تقول لى من ذا الذى أمرك بقتلى ؟ .. أرى أن تقول لى لئلا أتهم أناسا أبرياء .. قل ولو إجمالا» .

قال والد سليمان : «أعلم يا ولدى أنى أمرت من أعظم رجل فى هذه المدينة ، وهو صاحب السلطان الأقوى فيها» .

ففهم حسن أنه يقصد نائب المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من روابط الود . فتراءى له أن لعمه هذا دخلا فى هذه الخيانة ، لكنه كتم ما فى نفسه وعول على الصبر حتى يفرغ من مهمته إلى مكة .

وقال والد سليمان : «فهل ترى فى صحبتى لك نفعا، وإلا فإنى سأعيش هائما على وجهى فى هذه الصحراء» ..

فقال حسن : «إذا رافقتنى فإنى آنس بك وأتخذك والدا لى لأن سليمان أخى ، ولكن أرى أن ...» وسكت كأنه أراد أن يتكلم وأسكته الحياء.

فقال والد سليمان : «تكلم يابنى ولا تخف فإنى بمنزلة أبيك» .

قال حسن : «أحب فتاة فى هذه المدينة ، وقد خطبتها .. ولكنى قليل الثقة بمن حولها» .

قال والد سليمان : «من هى هذه الفتاة ، ومن هو والدها» .

فوجم حسن برهة ، ثم قال : «إنها سمية ابنة عرفجة الثقفى» .

فلم يتم حسن قوله حتى بهت والد سليمان وامتقع لونه لأن وعرفجة مشهور فى المدينة بخيانته وسوء نيته .

أما حسن ، فابتدره قائلا : «لست أطلب إليك أن تطلعنى على شيء تظنه سرا ، أما الفتاة فإنها خطيبتى ، والعهد بيننا شديد الوثاق. وأنا أوصيك أن تحاول البحث عنها والاستفهام عن أحوالها».

فقال والد سليمان : «أنا على ما تريد ، كن فى سكينة وراحة بال».

فلما فرغ حسن من أمر سمية ، نهض واعتذر بعزمه على السفر. فقال له والد سليمان : «إذا لم يكن بد من سفرك ، فاجعله من غير الطريق الذى سلكناه أمس .. اخرج من باب آخر ، وأنا أرسل معك خادمى ، وأقدم لك جملا أحسن من جملك .. وكن على ثقة بأننا فى خدمتك حتى تحقق أمنيتك . ولكن سر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة».

فقطع حسن كلامه قائلا : «وقد فاتنى أن أخبركم عن إبل البريد ، فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة فى هذا الصباح ، وأظنها قادمة من مكة..»

قال والد سليمان : «لا يبعد أنهم جاءوا بطلب نجدة أو مدد» .

سمية فى منزل سكينة

أما سمية ، فقد عادت من وداع حسن ودخلت بيت سكينة وتظاهرت بأنها كانت فى أحد جوانب المنزل ، وسارت إلى مجلس سكينة وفيه ليلى وغيرها ، فرحبت سكينة بها وسألتها عن سبب

تأخرها . فقالت : «كنت منشغلة فى بعض الغرف هنا» فقالت لها ليلى : «قد بحثنا عنك فلم نجدك ، ألا تظنى أن والدك يستبطئك ؟» .

قالت سمية : «ربما استبطأنى ، ولكننى هنا فى مأمن من غضبه» ..

ثم استأذنت سكينة فى من يوصلها إلى البيت ، فأذنت لها وبعثت معها إحدى الجوارى ..

وصلت سمية إلى البيت وسألت جاريتها أمة الله : «ألم يأت والدى ؟» .

قالت الجارية : «جاء عند الغروب ودخل الحجرة المعروفة ، وأقفل الباب عليه ، وهو لايزال هناك .. ولا يدرى أحد ماذا يعمل» .

فرأت سمية أن تلجأ إلى الفراش وتنام قبل خروج والدها من مخبأه ، مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابها .. وربما أساء الظن بها ، فجلست على فراشها واستدعت أمة الله وسألتها : «هل شغل بالكم غيابى الليلة ؟» .

قالت الجارية : «نعم يا مولاتى وبخاصة لأنك قلما تطيلين الغياب ، ولا سيما بعد أن جاء عبد الله للسؤال عنك» .

قالت سمية : «وأى عبد الله ؟» .

قالت الجارية : «الرجل الذى جاء فى صباح هذا اليوم..» .

فعلمت سمية أنه عبد الله خادم حسن ، فبغتت لعلمها أنه فارقها مستعجلا للحاق بسيده ، فأدارت وجهها إلى الجارية وقالت لها : «متى جاء ؟» .

قالت الجارية : «جاء قبل وصولك بقليل» .

قالت سمية : «وهل جاء وحده ؟» .

قالت الجارية : «لم أر معه أحدا» ..

ففكرت سمية فى الأمر ، فوجدت أنه جاء بعد أن فارقها بساعة أو ساعتين .. فتبادر إلى ذهنها أنه لم يأت إلا لأمر ذى بال ، إما لغرض أراده حسن منها ، وإما لشر أصابه. واستغرقت فى الأفكار ، وعادت الجارية إلى تمشيط شعرها.

وأصبحت فى اليوم التالى وهى لا تزال فى حاجة إلى النوم ، فظلت فى الفراش ونهضت فى الضحى .. فجاءتها جاريتها فسألتها عن والدها .. فقالت : «أفقت قبيل الصبح على قرع الباب، ثم علمت أن بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل.. فخرج وهو لم يتم لف عمامته» .

فأطرقت سمية وتذكرت سوء قصد والدها وما سمعته من قدوم عبد الله إليها بالأمس ، تبادر إلى ذهنا أن شرا عظيما أصاب حسنا ..

خديعة !

قضت معظم ذلك النهار فى قلق واضطراب ، ثم سمعت أذان العصر ، فالتفت نحو باب البيت .. فرأت والدها داخلا والبغتة بادية

على وجهه ، فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها ، فتبعته وهى لا تزال فى اضطراب ، ولكنها تظاهرت بالارتياح فخاطبها قائلا : «كيف قضيت يومك البارحة عند سكينة ؟» .

قال : «قضيته فى راحة ، ولكنى عدت وأنت منشغل فى الحجرة ، فنمت ونهضت فى هذا الصباح ، فقيل لى إنك خرجت بدعوة مستعجلة فانشغل بالى» .

فقطع كلامها ودعاها إلى الجلوس بجانبه وهو يبتسم ابتساماً لا يليق بذلك الوجه المملوء خبثا وغشا ، فلما جلست بالقرب منه وضمها وقبلها ، فأحست ببرودة شفتيه ، واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها ، ولكنها قبلت يده فإذا هى أبرد من شفتيه ، على أنها توقعت أن تسمع منه شيئا بعد هذا التملق ، فإذا هو يقول لها : «أظنك تشعرين بالضيق من طول الإقامة فى هذه المدينة» .

قالت : «إذا كنت أنت فى خير وسعادة ، فكل حال ترضينى» .

فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها ، وجعل يعبث بشعرها بين أنامله ، ثم قال : «بورك فيك من ابنة مطيعة ، فالحمد لله ، أن الفكرة التى كانت تخامر ذهنك قد زالت الآن ، وعدت إلى ما هو جدير بأمثالك من الرجوع إلى آراء آبائهن فى كل شىء» .

فتوهمت سمية عند هذا التعريض أن صخرة وقعت على رأسها، ثم قال لها : «أتذهبين غدا لترويح النفس فى العقيق ، فإنه منتزه جميل ؟ نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضى يومنا هناك» .

فعجبت سمية لذلك الاهتمام ، لأن والدها كان يندر أن يخاطبها بالحسنى ، فقالت : «أشكرك يا أبى على هذه العناية» ..

فقطع كلامها قائلا : .. فلنذهب غدا صباحا .

معسكر طارق

وما إن جاء الصباح حتى ركبت سمية الهودج فوق الجمل والجارية معها ، وركب والدها بغلة وساروا .

وجعلت سمية تطل من خلال الأستار إلى الطرق تتفرس فى المارة ، فلما خرجوا من باب المدينة ، بالغت سمية فى التطلع نحو الطريق الذى يؤدى إلى مكة .. لعلها ترى أثرا أو تستطلع خبرا ، فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، ولم تفهم حقيقة هذا المعسكر ، فلم تر بدا من أن تسأل والدها فنادته فلم يجبها ، فأخرجت رأسها من بين الأستار لتبحث عنه .. فإذا هو قد أركض بغلته نحو المعسكر ، فظنت أنه ذاهب لاستطلاع الخبر ، فأمرت الغلام أن يظل فى مسيره .. فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية لا تزال تشرف على الطريق وتتطلع إلى كل جهة والقلق باد فى عينيها .

وكانت أمة الله تلاحظ قلق سيدتها ، ولكنها لم تتجاسر على السؤال إلا عندما رأت دموعها تتساقط ، فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم : «ما بالك يا سيدتى تبكين ، قولى ما بالك ؟» .

فتنهدت سمية ومسحت دموعها وهدأ روعها فقصت على جاريتها الحديث مختصرا وأطلعتها على مكنون قلبها ، فأحست للحال أن المصيبة خفت عنها . فشاركتها الجارية البكاء.

وبينما هما فى الحديث والجمل سائر سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا أن عرفجة عاد إليهما .. وبعد قليل وصل إلى محاذاة الهودج فنادى سمية ، فأطلت وسلمت على أبيها فقال لها : «لعلى غبت عنك كثيرا ؟» .

قالت سمية : «نعم يا سيدى ، وخصوصا لأننا رأينا خياما وجمالا وخيولا ، فلم نفهم سبب هذه الحركة» .

فأجابها : «إن هذا المعسكر معسكر طارق بن عمرو نائب المدينة، وقد خرج برجاله وجنده قاصدا مكة» .

قالت سمية : «ولماذا؟» ..

قال عرفجة : «جاء بريد الحجاج بن يوسف أمس يستقدم طارقا ورجاله مددا له فى حصار مكة ، وعما قليل يسافرون» ، قال ذلك وساق بغلته ، وتظاهر أنها أسرعت من نفسها فانقطع الحديث . وسرت سمية بانقطاعه لتعود إلى التفكير فى حسن ، لعلها تلتمس تعليلا يريح بالها عليه ..

ثم التفتت فإذا هى على مقربة من ثلاث خيام ، اثنتين قرب الماء ، وواحدة منفردة تحت ظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق لأنها كانت تعرفه ، فحولت نظرها إلى ما حولها فإذا هى لا تزال على مقربة من المدينة وخيام المعسكر لا تزال ظاهرة . وتفرست فى الخيام حولها ورأت الخدم ، فإذا هى خيامهم وخدمهم فاستغربت ذلك ، ولكنها لم تعلق عليه أهمية كبرى إذ لم يكن لها رغبة فى العقيق ولا غيره .

وجاء الخدم انزلو الهودج بقرب الخيمة المنفردة ، فنزلت سمية وجاريتها ودخلتا الخيمة ..

حديث ذو شجون

فلما دخلت سمية الخيمة .. رأت أبوها يسرع حتى وصل إليها ، فنهضت له . فقال لها : «كيف رأيت هذا النهار ؟» .

فتظاهرت بالابتسام ، قالت : «إنه نهار جميل .. ولكننى سمعتك تقول إننا ذاهبون إلى العقيق وأرانا لا نزال بباب المدينة» .

قال عرفجة : «إن العقيق بعيد ، فأحببت الاستراحة هنا .. وإذا شئت المسير إلى العقيق سرنا .. وإنما أحب أن تكونى مسرورة فرحة ولا أراك منقبضة النفس ، .. فأبوك يحبك حبا شديدا وقد انقطع عن العالم من أجلك .. ولا يترك وسيلة إلا اتبعها فى سبيل راحتك وسعادتك ..» .

فلما رأت منه ذلك التلطف خشيت مما وراءه .. وظلت ساكتة، ثم قال : «ولقد سرنى منك إذعانك لمشورة أبيك بشأن ذلك

الشاب ، وعدت إلى ما هو جدير بأمثالك .. ويسرنى أيضا أن أبشرك بسعادة قد وفقت إليها من أجلك ، ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة .

فازداد قلقها واستشفت من وراء ذلك الكلام بشرى سوء ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، فإذا هو يقول لها : «لماذا لم تسألينى عن تلك السعادة ؟ أتعلمين أنك ستصيرين بعد قليل سيدة نساء هذا الجيش ؟» ، قال ذلك وأشار إلى المعسكر .

فلما سمعت قوله علمت أنه يشير إلى خطبتها لأحد كبار ذلك الجيش ، واحمرت وجنتاها بغتة ، ثم تساقط الدمع على معصميها . فلما رأى والدها ذلك تحقق أنها لا تزال متعلقة بحسن ، فأراد أن يقطع أملها منه فقال لها : «ما بالك لا تجيبين ؟ .. ألم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة ؟ .. أنك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بنى أمية المحاصرين لمكة الآن ، إنك ستزفين إلى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان» .

فلم تستطع أن تمسك عن البكاء ، فلما رآها عرفجة تبكى علم أنها لا تزال تفكر فى حسن فأمسك يدها فقال لها : «أحسب أن صورة ذلك الغلام لا تزال فى ذهنك .. فإذا كان فى قلبك بقية من أمل فيه فانزعيها ، لأنه قد مضى وقضى الأمر» .

ورفعت رأسها تنظر إلى والدها وعيناها تقطران دمعا ، وكأنها تريد أن تكشف عن هزل قوله من جده ، فابتدرها قائلا : «صدقينى إنه لم يعد لك سبيل إلى حسن ، ولا هو له سبيل إليك، لأن أمره قد انقضى .. والأموات لا يقومون فى هذه الدنيا» .

فلما سمعت سمية قول والدها صاحت صيحة سمعها كل من فى الخيام ، وقالت : « .. لا ، لا ، حسن لم يمت .. إنه حى» .

ثم استغرقت فى البكاء ، ووالدها لا يزال واقفا ، وقد بغت لما رآه .. ثم عاد فقال لها : «أراك لا تثقين فى قولى ، وأنت تعلمين يا سمية أنى أقول لك دائما الصدق .. صدقينى إن حسنا قتل فى أثناء خروجه من المدينة .. أتقتلين نفسك معه ؟ ..» .

فصاحت : «نعم أقتل نفسى ، ولا غرض لى فى الحياة بعده .. قتلتموه ظلما وغدرا .. ويلك يا ظالم .. كيف قتلته ؟ .. اقتلنى معه .. اقتلنى ..» .

فقال لها : «اشكرى الله أنه مات قبل أن يتزوج بك وإلا لما كنت تنالين حظوه فى عين الحجاج» .

فقطعت سمية كلامه قائلة : «وأى حجاج ؟ مالى وللحجاج .. لا أريد غير حسن» ..

فقال عرفجة : «ألا تزالين تنكرين قتله حتى أريك جثته ؟» .

فوثبت سمية من مجلسها ، وصاحت : «لا ، لا ، لا ترينى إياه ميتا .. قتل .. اقتلنى يا ظالم يا خائن ، اقتلنى وأرح نفسك منى ، وأرحنى من الحياة كما أرحت رجلا أنقذك وأنقذ أهل بيتك من القتل فكافأته بالقتل» .. قالت ذلك وقد أحست بقوة الرجال الأشداء ، ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة توبيخها صاح فيها : «اسكتى يا عاقة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين والدك ؟ .. والله لولا حرمة البنوة لمزجت دمك بهذه المياه .. وسأصبر عليك هنيهة وأعرض عليك السعادة مرة أخرى ، فإن أبيت قتلتك بهذا الخنجر..» .

فواجهت سمية والدها وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهى تقول : «اضرب .. اغمد خنجرك فى هذا القلب .. والموت أحب إلى من الحياة بعد ذهاب حبيبى » .

فلما رأى منها ذلك العناد ، صاح قائلا : «أهذه نتيجة التعب الذى تعبته فى تربيتك يا عاقة .. نعم قد حل لى قتلك ، ولكنى لا ألوث يدى بدمك ، وسترين قبل موتك جميع ألوان العذاب» . ثم نادى عبده : «قنبر» ، فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر فقال له : «قيد يدى هذه الخائنة ورجليها بالحبال ، وسأريها عاقبة العناد» .

فلما رأت سمية قنبر مقبلا ، وثبت من مقعدها وصاحت فيه : «اذهب يا عبد السوء ولا تقرب منى .. ابعد عنى ، قبح الله وجهك» .

أما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده ، وهو لا يبالى بصياحها .

سر الأمر

وكان الخدم قد سمعوا صياحها وصياح والدها ، فلم يجرؤ واحد منهم على الاقتراب من الخيمة إلا أمة الله ، فإنها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة ، ولبثت تتسمع ما يدور .. فلم تر سبيلا إلى استبقائها إلا بالحيلة ، فأسرعت إلى عرفجة وترامت على قدميه ، وقالت : «بالله إلا أشفقت على سيدتى وأنا أضمن لك كل ما تريده منها ..» .

وكان عرفجة يرجو من زواجها الحجاج منفعة كبرى لنفسه ، فكان يعلم أن الحجاج يحب الزواج بسمية ويبذل لها مهرا كبيرا، ولكنه كان يخاف أن تشكوه لعبد الملك بن مروان بواسطة سكينة بنت الحسين أو غيرها من أهل الوجاهة والنسب فى المدينة . فلما اطمأن إلى مقتل حسن ، أخبر طارقا بن عمرو أمير المدينة أن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف ، وأنه يعلم برغبته فيها . وكان طارق أيضا مثل عرفجة ، قسوة وطمعا ، وله مطمع فى وظائف الدولة ، ولا يتأتى له ذلك إلا إذا تقرب إلى الحجاج بما يهمه ، فرأى أن يتقرب إليه بسمية فيخطبها له ويحملها إليه .

وكان عرفجة من ناحية أخرى ، يعلم بتعلق ابنته بحسن ونفورها من الحجاج وغيره وكان يتوقع رفضها .. فهيأ الأسباب المساعدة

على إقناعها بأية وسيلة كانت ، وتواعد هو وطارق أن يخرج بها إلى قرب المعسكر ويحاول إقناعها بالحسنى .. فإذا لم تقتنع عمد إلى العنف فيحملها إلى الحجاج ولو موثقة ، ولم يكن هو ينوى الذهاب معها لغرض له فى المدينة يتعلق بتلك الغرفة السرية . أما بعد أن تسير إلى مكة ويتزوجها الحجاج ، فلا يعود لها سبيل للشكوى . وقد أوصى طارقا أن يكتب الحجاج كتابه عليها ويتزوجها ساعة وصولها ، حتى ينقطع لديها كل أمل فى النجاة . ولكن سمية عارضت ما عرضه عليها .

فلما لقيته أمة الله وترامت على قدميه ووعدته بإقناعها ، نادى عبده فخرج .. وأمر أمة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرأت سيدتها مغمضة العينين فبادرت بأن رشت على وجهه الماء حتى أفاقت ، فالتفتت سمية فرأت جاريتها فوق رأسها وهى تقبلها وتحاول إنعاشها ، فارتد إليها وعيها .. فقالت أمة الله بصوت منخفض : «ماذا فعلت بنفسك يا سيدتى ؟» .

فعادت سمية إلى البكاء وقالت : «أتسألينني يا أمة الله عن سبب ما ترينه وقد مات حسن .. حبيبى» .

فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها ، وهمست فى أذنها قائلة : «اخفضى صوتك لنتدبر فى هذا الأمر بالحكمة لأن العنف لا يجدينا نفعا» .

فقالت سمية : «دعينى يا أمة الله .. فإنى لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبى حسن .. قتلوك ، لعنهم الله .. لماذا لم يقتلونى بدلا منه ؟» .

فتقطع قلب أمة الله على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة وحكيمة وصاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : «من قال لك إنهم قتلوه ؟» .

فقالت سمية : «أخبرنى هذا الظلم الخائن .. أنه قتل» .

قالت الجارية : «مهما بلغك من أمر القتل ، فلا يمكن أن نعده فى موضع اليقين وهبى أنك تريدين الانتحار لتتخلصى من الحجاج .. فاصبرى حتى النهاية ، فإذا رأيت الحجاج أوشك أن يبلغ مرامه منك ، تجرعى السم واقتلى نفسك» .

قال سمية : «ومن أين لى بالسم ؟» .

قالت الجارية : «أنا أكون معك .. اشرطى على أبيك أن أكون أنا فى خدمتك ، وأنا أهيىء لك السم ، ومتى تحققت من يأسك أجرعك السم وأتجرعه أنا أيضا .. والآن تظاهرى بالرضا ، ولا يبعد أن يهيىء لنا القدر مخرجا قبل وصولنا إلى مكة ، أو لعنا نجد حسنا ونحن فى الطريق فتذهبين إليه .. ماذا يكون شأنك إذا قتلت نفسك وحسن لا يزال حيا ؟» .

فلما سمعت كلام أمة الله ، أحست بانشراح صدرها ، وارتاح بالها ، وعادت إليها الآمال ..

فسرت الجارية لنجاح مهمتها ، وخرجت إلى سيدها ، وقالت : «إنى رأيت سمية مطيعة لأمرك فى كل ما تريد» .

فاطمأن بال عرفجة وقال : «لابد من ذهابها الآن إلى خيمة أعدوها لها فى معسكرهم ، ولا آمن عليها أن تسير وحدها .. فاذهبى أنت معها وأكدى لها أنى لم أفعل بها ما فعلته إلا رغبة فى راحتها» .

وقالت : «بارك الله فيك .. ولكن سمية تحتاج إلى إحضار ثيابها وأدواتها» .

فقطع عرفجة كلامها ، وقال : «كل شىء معد لها فى خيمتها بالمعسكر ، ولا تحتاج إلا إلى الذهاب إليها» .

ثبوت القتل

بعد فترة قصيرة وصلوا إلى المعسكر فتحققت سمية أنها وقعت فى الشباك ..

وأن والدها باعها لرجل لا تحبه ، والناس يتحدثون بقسوته وشدته .

فلما وصلت سمية إلى الخيمة المعدة لها رأت صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك ، فجلست تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال ، وكان فى جملة ما شغل ذهنها كلب رأته ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه ، فيقذفها ثم يعدو فى أثرها ، فاتفق أن قذف الكلب فريسته فوقعت بين يدى سمية ،

فإذا هى قطعة من رداء ملوثة بالدم . وما لبثت أن قلبتها حتى صاحت : «ويلاه .. هذا هو رداء والدى .. قتل حسنا به..» .

وأخذت تبكى وتقول : «قتلوه .. لم يبق عندى شك فى قتله..» .

فقطعت أمة الله كلامها ، وقالت : «وما علاقة هذا الرداء بقتله ؟» .

قالت سمية : «ألا تتذكرين أن والدى أهداه له يوم أن عزم على السفر ، وألح عليه فى لبسه للوقاية من البرد .. ألبسه إياه وأوعز إلى من يقتله وكأنه اتخذ الرداء دليلاً عليه ، فأصابوه ..» .

ولم تر سمية غير الصبر ، فصبرت نفسها .. بعدما تحققت من مقتل حبيبها .

وفى أصيل ذلك اليوم ، نودى الجند : الخيل الخيل ، فركبوا بعد أن قوضوا الخيام ، ومشت الفرسان إلى الأمام وأصحاب الرايات بينهم ، وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمرو .

خادم حسن

ولنرجع إلى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن .. فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد أن رافق سمية إليه . وأنه لما رجع عبد الله من بيت سكينة أسرع لمقابلة سيده خارج باب المدينة ، وتصور ما يحدق بسيده من الأخطار .. فسار مدة وقد نسى نفسه ، فأخطأ الطريق وخرج من باب غير الذى خرج منه حسن ، وسار

من طريق آخر يؤدى إلى جهة أخرى . وبعد مسير ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، لا يرى الطريق ولا يدرى أين هو ، فتحول إلى جهة أخرى .. وكان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض ما يبدو فيها من الأنوار ، فيرجع إلى جوارها .. وقضى ليلته فى هذا الاضطراب .

* * *

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم ، فأسرع نحو جهة الصوت وكان يشبه صوت جمل سيده . فناداه بما تعود أن يناديه به من الأصوات ، فازداد الجمل جعجعة وهو باق مكانه .. فأقبل نحوه فإذا هو الجمل بعينه ولكنه لا يستطيع النهوض ، فغاص عبد الله فى الماء حتى دنا منه ..

فلما تحقق أنه معقور ، اضطرب وشغل باله ، فأسرع ونزع عنه ما يحمله فوق ظهره من متاع .. وقف مدة وهو يفكر فى ماذا عسى أن يكون من أمر حسن . واشتد به الاضطراب والقلق ، فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما ، ووضع متاع حسن بين يديه وجعل يفتش به ، فوجد فى جيبه رسالة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير .. فعلم أنها الرسالة التى سيحملها حسن إلى مكة . فلما رآها زاد قلقه وقال فى نفسه : لو أن حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه لأنه إنما جاء إلى هذه الديار من أجله . فثبت لديه أنه قتل أو أصيب بخطر عظيم ، ولم ير إلا

انهماك الناس فى إعداد النجدة للحجاج ، فاستقر رأيه أخيرا على أن يحمل كتاب خالد إلى عبد الله بن الزبير فى مكة ، فيتم المهمة التى جاء حسن من أجلها .

عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة .. وكان لما توفى معاوية وبويع لابنــه يزيد ، قد أنكــر ابن الزبير بيعته كما أنكرها الحسين بن على ، وخرجا من المدينــة إلى مكة ودعا كل منهما بالبيعة لنفسه . ولكن عبد الله بن الزبير لم يكن يتظاهر بذلك والحسين فى مكة ، لعلمه أنه أولى منه بها .. حتى إذا كان ما كان من خروج الحسين إلى الكوفة ومقتــله فى كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير ، فبايعه الناس واستفحل أمره وجعل عاصمته مكة، وبايعه أهــل الحجاز واليمن فعظم أمره على بنى أمــية فحــاربوه فلم يفلحوا . فلما كانت خــلافة عبد الملك بن مروان حاربه أيضا.

* * *

وكان الحجاج بن يوسف يومئذ أميرا من أمراء عبد الملك ، ولعبد الملك بن مروان ثقة فى شجاعته .. وكان الحجاج راغبا فى الخروج على عبد الله بن الزبير فاحتال على عبد الملك برؤيا قال أنه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبد الملك بن مروان أن يبعثه إليه .. فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام.

فسار الحجاج بن يوسف سنة ٧٢ هـ وحارب عبد الله بن الزبير فى مناوشات لم يتم الفــوز فيهـا لأحد الجــانبين ، فمل الحجاج المطــاولة .. فبعث إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى دخول الحرم وحصار ابن الزبير ، فأذن له وأمده بخمسة آلاف رجل آخرين ، فاشتد أزر الحجاج بن يوسف فحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه عليه ، ولكنه لم ير سبيلا إلى الفوز إلا به ، وطــال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة الأبنية ليس فيها غير المسجد، وفى وسطه الكعبة وبعض الأبنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت فى حصارها قبل مجىء الحجاج ، فأعاد عبد الله بن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه.

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبى قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير مقيما مع أهله فى المسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت ، وهو صابر صبر الرجال . وأما الحجاج فكان من جملة مساعيه فى تضييق الحصار على عبد الله أن بعث سراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول إليها والخروج منها .. ولما طال أمد الحصار على الحجاج ، ولم يسلم المحاصرون استنجد بطارق بن عمرو أمير المدينة .

محمد بن الحنفية والمختار

فلنرجع إلى حسن بعد أن تركناه وقد خرج من المدينة على جمل أهداه له والد سليمان ، ومعه العبد بلال . فبعد مسيرة أيام ، أشرفا على مكة نحو الغروب ، فرأياها محاطة بجيش من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال : «إنى أرى الطلائع الأموية حول مكة، ولا آمن إذا واصلنا السير أن يمنعونا وهم كثيرون ، فهل تأذن لى بالخروج إليهم والاستفهام عن حالهم ثم أعود إليك؟» .

قال حسن : «سر ولا تبطىء» .

فمشى بلال ، وتحول حسن إلى حائط بعيد عن الطريق العام .. ولكنه استبطأ بلالاً وحسب لتأخره ألف حساب .

وبينما هو يفكر فى أمره التفت فرآه قادما .. فلما وصل بلال قال لحسن : «لا سبيل لنا إلى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها من كل ناحية .

فقال حسن : «أنبقى وراء هذا الحائط إلى الغد؟» .

قال بلال : «أتعرف محمد بن الحنفية؟» .

قال حسن : «أليس هو ابن الامام على وأخا الحسن والحسين من أبيهما ؟ كيف لا أعرفه» .

قال بلال : «إن لهذا الرجل حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير، فلعلنا إذا جعلناه واسطتنا أدخلنا مكة فى سهولة ويسر» .

فقطع حسن كلامه ، وقال : «لعلك تعرفه يا بلال معرفة جيدة ؟..»

قال بلال : «نعم يامولاى .. وقد شهدت منه كثيراً مما تناقله الناس من أحاديث قوته البدنية. وهو يعرفنى أيضاً..» .

فقال حسن : «وهب أنك تعرفه أو يعرفك، فماذا تبتغى من وراء ذلك ؟..» .

قال بلال : «الغرض من ذلك أنه مقيم الآن فى الشعب بجوار مكة ، فإذا شئت نزلنا عنده الليلة، ثم نرى مايكون فى الغد» .

فقال حسن «بورك فيك ...» وأخذ يهيىء جمله للركوب، وبلال يساعده ويقول:« انى أرى مكة فى ضيق شديد، وأخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر، فإن الأمويين سيغلبون على ما رأى» ..

فتذكر حسن ماهو قادم من أجله وخشى أن يخفق فى مسعاه، ولكنه صبر نفسه ريثما يدخل مكة فى الغد.

فى دار الضيافة

ثم ركب حسن ، وسارا حتى قال بلال : «إننا على مقربة من الشعب .. وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل، فهل تريد أن ننزل فى دار الضيافة رأساً أن تقصد خيمة الأمير .

قال حسن : «أخشى أن يكون فى دخولنا خيمته مايزعجه، والأجدر بنا أن نزوره فى صباح الغد» .

قال بلال : «فلنذهب إذن إلى دار الضيافة، فإنهم لايسألون القادم إليها عن سبب قدومه، ومتى أصبحنا نرى مايكون. وربما خرجت أنا الليلة لأدبر الأمر» .

فأثنى حسن على غيرته .. وبعد قليل ظهرت لهما الخيام ، وكانت كثيرة منصوبة على غير نظام، فى نحو منتصفها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه أنه فسطاط محمد بن الحنفية ية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس فى الخيام من خلال ذلك الظلام حتى تبين خيام الضيوف ، وقد عرفها من انفردها عن سواها وقربها من النار .. فتحول وحول الجمل حتى اقتربا من الخيام ، فسمعا لغطا وكلاما فعلما أن الناس غير نيام. فترجل حسن وسبقه بلال إلى أقرب خيمة ، فلقيه رجل رحب به وسأله عن جهة مسيره، وقال إننا ضيوف غرباء .. فأنزلهما على الرحب والسعة، وأدخلهما خيمة ليس فيها أحد . فدخل حسن، وظل بلال خارجا يهتم بالجمل .. فتناوله منه أحد الخدم وأخذه إلى المعالف، وعاد بلال إلى حسن فإذا هم قد أعدوا له طعاماً ، فأكل ثم توسد للراحة، فاستأذنه بلال فى الخروج على أن يعود بعد قليل وينام بباب الخيمة.

ولما عاد بلال سأله حسن أين كنت فقال نمت فى أول الليل بباب هذه الخيمة، ولكننى مالبثت أن استيقظت وأخذت فى التفكير فى مصيرنا، وإننا إذا لم نستطع غدا مقابلة الأمير طال بقاؤنا. وخشيت من جهة أخرى أن يكون علينا بأس إذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا ، فرأيت أن أمهد هذه العقبات فى هذا الليل وأنت نائم، فنهضت وسرت إلى رجل من المقربين إلى الأمير، وقد عرفته من أيام المدينة .. ولى عليه دالة . فلقيت الرجل فى خيمته بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح، وقد زاد صاحبى تقربا وكرامة حتى صار يدخل من باب خاص دون سائر الناس .. فلما رآنى رحب بى وأكرمنى وسألنى عن أمرى، فقلت له : «إننا جئنا نلتمس من الأمير وسيلة ندخل بها مكة». فوعدنى خيراً .

وفى الصباح سار حسن وبلال إلى خيمة سعيد صديق بلال وسأله حسن عن الذهاب إلى مكة فقال : «أظننى إذا سألت مولاى الإمام عن هذا الشأن، أمر بذهابى معكما لأنى تعودت الذهاب إليها من قبل، قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه فى الذهاب معهما، فأذن له.

يا شوقى .. والحبيب قريب

وبينما هم يسيرون إلى مكة، وحسن يفكر فى مهمته وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير بدون كتاب خالد، رأوا غباراً يتصاعد فى عرض الأفق من جهة طريق المدينة، ثم انقطع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع .. فلما اقترب الركب تفرس حسن فى الأعلام والناس، فعلم أنهم من أنصار بنى أمية، فرجح أنها نجدة للحجاج.

فقدر أن الحملة قد سارت بسرعة كبيرة مما يدل على اضطرار الحجاج بن يوسف إليها ، فلجأ هو ورفيقاه إلى مكان يرون الركب منه ولا يراهم أحد، وجعل حسن يتفرس فى وجوه الناس فمر الفرسان وحملة الرايات أولاً ، ثم المشاة ثم أحمال الزاد والمئونة، وأخيراً رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد، وإلى كل من جانبيه فارس. وكان من عادة العرب فى الجاهلية وأوائل الاسلام إذا خرجوا إلى حرب، أن يحملوا معهم غالباً النساء والأولاد. فاستغرب حسن أمر هذا الهودج، وما درى أن يقل حبيبته التى سلبت لبه وأنهم يحملونها إلى سواه ..

لقد ظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها تحولت إلى جبل أبى قبيس، فتحققوا أنها نجدة المدينة إلى الحجاج بن يوسف لعلمهم ان الحجاج قد ضرب خيامه فى تلك الأنحاء.

الكعبة والمنجنيق

ومشوا حتى أقبلوا على مكة، وسعيد يركض بجواده، وحسن وبلال يسيران وراءه.. فلما أشرفوا على مكة رأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، فاقترب إليهم بعضهم .. فتقدم سعيد حتى استقبلهم وقال لهم إنهم ذاهبون لغرض يخص محمد ابن الحنفية فأذنوا لهم وقد عرفوه فدخلوا مكة وحسن ينظر عن بعد إلى جبل أبى قبيس ، فرأى فيه خياماً وحولها الناس .

وبعد قليل وصلوا إلى تل فيه بعض المدافن ، فقال سعيد : «ها نحن فى الحجون» ، فوقف حسن على مرتفع ونظر إلى مكة، فإذا هو قد أشرف على المسجد الحرام والكعبة فى فلما رأى ذلك قال : «إنى أرى الكعبة على غير ماعهدتها، كأنها كبيرة وأن عليها فرشا وأثاثا، وكأنى أرى فى أرض المسجد خياماً..» .

فقال سعيد : «لقد صدق ظنك ، أما الكعبة فانها الآن أكبر مما تعهدها لأنها احترقت فى الحصار الماضى على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها إلى ما كانت عليه فى الزمن الأول قبل أن تبنيها قريش وأما ماتراه على سطحها فهو ألواح الساج، وضعت فوقها الفرش والأثاث وقاية لها من حجارة المنجنيق لأن الحجاج يرمى الكعبة بالحجارة نكاية فى ابن الزبير..!» .

فقطع حسن كلامه ، وقال : «أعوذ بالله من ذلك .. يرمون بيت الله بالحجارة..» .

فقال سعيد : «هذا عمل الحجاج ، فإنه رجل لايبالى بما يقف فى سبيل مقاصده» ..

فعجب حسن ، وساق جمله حتى نزلوا أسواق مكة، فقال لسعيد : «لقد وصلنا مأمننا، فإذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا» .

فقال سعيد : «بل أوصلكما إلى المسجد ، فأطوف طوفة وأعود» ..

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية، فقال سعيد : «هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة .. انظر إلى حمام الحرم كيف يتطاير من صوت وقوعه!» .

ودخل حسن وسعيد إلى المسجد ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له إنه يصلى بجانب الكعبة، فسأل عما يفعل بعد الصلاة، فقالوا : «إنه يذهب إلى بيته» .. فدله سعيد على بيته، وودعه.

فرأى حسن أن يصلى ركعتين فصلى ثم جلس فى أحد أطراف المسجد ينتظر الفراغ من صلاة عبد الله، فى ذلك الوقت .. وجعل يفكر فى أمره والمهمة التى جاء من أجلها ، ثم جرته هواجسه إلى ما كان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليتزوجا ، ثم مالبث أن سمع قرقعة وأحس أن شيئاً هوى بالقرب منه، فالتفت فرأى حجراً

كبيراً أصاب الكعبة وسقط على الأرض، ولم ير الناس يهتمون بتلك الحجارة لأنهم تعودوها لكثرتها..

فتذكر حسن للحال أن عبد الله يصلى بجوار الكعبة، فاستغرب كيف يعرض نفسه للحجارة .. وخشى أن يكون ذلك الحجر قد أصابه وأضر به حتى لم يعد يستطيع النهوض، وخاصة بعد أن طال وقت صلاته .. فانشغل خاطره عليه، فنهض ومشى فى فناء المسجد يلتمس الكعبة ، ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الأخرى بضعة رجال وقوفا. فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله بن الزبير، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجداً وقد استقبل الأرض بوجهه، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لايتحرك. فخيل له أنه ميت .. فاستغرب وقوف الناس بالقرب منه فى غير حرج ولا اهتمام. فتقدم إلى أحدهم فحياه ، وأشار إشارة يستدل منها على دهشته من أمر ذلك الساجد، فابتسم الرجل وقال: «يظهر أنك لاتعرف من هو الساجد؟» .

قال حسن : «كلا..» .

قال الرجل : «هو أمير المؤمنين» .

ففهم حسن أنهم يريدون عبد الله بن الزبير، فزاد عجبه وقال : «وما بالى أرى الحمام يقع على ظهره وهو لايتحرك ؟» .

قال الرجل : «يظهر أنك غريب فى مكة.. اعلم أن مولانا أمير المؤمنين أكثر الناس صلاة وسجوداً، وكثير ما رأينا العصافير تقع على ظهره فى أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده، ولهذا السبب ترى الحمام يقع عليه».

فقال حسن : «إنه سجود طويل».

فتقدم رجل آخر وقال : «يظهر أنكم لاتعلمون من تقوى أمير المؤمنين إلا قليلا . وأما أنا فقد صحبته طويلاً، فرأيته يقضى لياليه ساجداً. أما صومه، فإنه يصوم الدهر كله إلا ثلاثة أيام يفطرها فى كل شهر».

فدهش حسن لهذه التقوى، وقال فى نفسه : «يجدر بمن كان مثل هذا أن يكتب له النصر».

وفيما هم وقوف، سمعوا رعداً علموا أنه صوت المنجنيق فجفلوا، ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط إلى الأرض بجانب ابن الزبير، فنفر الحمام عنه وهو لايزال ساكنا لايتحرك، فذهل حسن وقال لصاحبه : «ألا تخافون على حياة أمير المؤمنين» .

قال الرجل : «لقد طالما نبهناه إلى ذلك ، وكثراً ما وقع له مثل ماتراه ، وهو لايبالى» .

ابن الزبير وابن صفوان

فتأمل حسن فى وجه محدثه، فإذا هو يتكلم وملامح الاهتمام بادية على محياه .. لايدرى بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، ورآه موجها نفسه إليه يتوقع سؤالا يسأله إياه عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته .. قرأ حسن كل ذلك فى عينى الرجل ، وتأكد مما رأى أنه من أشد أنصار ابن الزبير غيرة عليه، وتبين له من قيافته وهندامه أنه من وجهائهم. وزاد اعتقادا فى وجهاته لما آنسه من لطفه ودعته.

وبينما حسن يفكر فى أمر ذلك الرجل، سمع عبد الله ينادى: «ابن صفوان» ، ثم رأى الرجل الذى كان يخاطبه بغت، وأسرع إلى عبد الله يقول : «لبيك ياأمير المؤمنين» .

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحى، وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير واستماتته فى نصرته، وهو رجل فى نحو الستين من عمره عريض الجبهة، خشن الملامح، ثم التفت حسن إلى ابن الزبير.. فإذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة وتأمل فى وجهه عند نهوضه من الصلاة ، فرأى الهرم قد بدا فى ملامحه لفرط ماقاساه من أمر ذلك الحصار، وهو فى الثالثة والسبعين من عمره لأنه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة.

ثم رآه حسن قد تحول إلى جهة أخرى . وسار ابن صفوان فى أثره .. فاقتفى أثرهما وهو يفكر فى مخاطبة عبد الله فى الأمر الذى

جاء من أجله، لكنه تهيب واستحى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق. على أنه عول على اغتنام الفرصة ومخاطبته فى خلوة.

والناس حيثما لقوه وقفوا له وحيوه، حتى أشرفوا على درا واسعة قد غصت بالوقوف من الناس، وخارجها مرابط الخيول. فلما أقبل عبد الله بن الزبير على الدار، توجهت أبصار الناس اليه وأفسحوا له الطريق .. فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد فى صدر القاعة فجلس عليه، وجلس إلى جانبه شاب كثير الشبه به ظنه ابنه، ثم جاء شابان آخران جلسا إلى جانبه الآخر، وجلس الناس بين يديه لايفوه أحد بكلمة.. أما حسن فرأى ابن صفوان يشير اليه من أحد جوانب القاعة، فمشى اليه وجلس إلى جانبه فالتفت حسن إلى ابن صفوان وقال له : «أى أبناء أمير المؤمنين هؤلاء ؟».

قال صفوان : «إن الذى تراه إلى يمينه هو أخوه عروة بن الزبير .. والاثنان الجالسان إلى يساره ولداه حمزة وحبيب، وترى على مسافة منهما شابا مطرقا فى الأرض هو ولده الثالث واسمه مثل اسم جده .. ان هذا الشاب جدير بأن يكون ابن أمير المؤمنين» ، قال ذلك واستأذنه قائلاً : «لابد لى من أن أبرح الآن لأمر يدعونى إلى ذلك ، فإننا فى مجلس ذى بال اليوم.. وستسمع وترى، فإن هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل» ، قال ذلك ثم تحول حتى وقف على مقربة من عبدالله ، فأشار إليه عبدالله أن يجلس .

تدهور الحال

ثم وقف أحد الجلوس، وخاطب عبد الله قائلاً : «ياأمير المؤمنين إننا بحمد الله نعتقد بصدق دعوتك وأنك على الحق. وقد قاتلنا معك فإما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج».

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق من ضعف القوم، وعلم إنهم صائرون إلى الفشل. ثم سمع ابن الزبير يقول : «ألم تبايعونى على أنفسكم وأموالكم ؟..».

قال الرجل : «بلى، ولكننا نرجو أن تعفينا من بيعتنا».

فالتفت حسن إلى ابن صفوان ، فرآه قد وقف والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه،وقد ظهر التأثر فى وجهه، وقال: «أما أنا فإنى أقاتل معك حتى أموت بموتك».

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى وقف حسن وقال «ان لأمير المؤمنين بيعة فى أعناقكم، وأنتم جماعة قريش أهل الحماسة، فكيف تغادرون أمير المؤمنين وهو فى هذه الحال ؟..».

فلما فرغ من الكلام وقف رجل آخر وقال : «لقد نطقت بالصواب وأن البيعة فى أعناقنا لاننكرها، وما نحن بخارجين من بين يديه الا بأمره. ولكننا نرى القتال عبثا ومعنا من الرجال عشرة آلاف رجل ، وقد جعنا جميعاً وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا.

والحجاج يرمينا بالحجارة فوق الكعبة، فهو لايبالى بحرمة هذا البيت. وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الأمان .. فمن خرج إليها سلم، فما بالنا لا نختار الطريق الأسلم».

أطرق عبد الله بن الزبير وأخذ يحك ذقنه وسكت الناس ينتظرون رأيا جديداً، فإذا بعروة بن الزبير أخى عبد الله قد التفت إلى أخيه وهو جالس بجانبه على المقعد، وقال له : «ياأمير المؤمنين قد جعل الله لك سابقة».

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب فى وجهه : «من هو؟..»

قال عروة : «الحسن بن على، فإنه خلع نفسه وبايع معاوية».

ولم يتم عروة قوله حتى غضب عبدالله ، ثم قال : «إن ضربة بسيف فى عز، خير من لطمة فى ذل» ، ثم وقف والتفت إلى الجموع ولحيته تنتفض فى وجهه من شدة التأثر، وقال لهم : «أنتم مخيرون فافعلوا ماتشاءون، وان رجلا يجر إلى الحرب بحبل لا يحارب.. وان الله وليىٍ ونعم النصير» قال ذلك وأراد التحول، فوقف ولداه عن يساره وهما حمزة وحبيب، وقالا : «هل نحن مخيران أيضا؟».

فعجب حسن، وقال فى نفسه : «حتى أولاده تخلوا عنه، والتفت إلى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما فيهما من الدمع، ثم قال : «نعم ياولداه، وأنتما أيضاً فى حل.. أمضيا واطلبا

الحياة ولا تموتا» ، ثم اختنق صوته، ونظر إلى ابنه الثالث الزبير، وقال له : «وانت يابنى اطلب لنفسك أمانا مع أخويك، فوالله إنى لأحب بقاءكم».

فوثب الزبير من مجلسه، قائلاً : «حاشا لله أن اتخلى عنك».

ثم انصرف عبدالله إلى دار النساء، وظل حسن واقفا وهو يسمع مايدور بين جملة الناس فعلم انهم أجمعوا على الخروج إلى الحجاج يلتمسون أمانه. وأدرك أن أشد ماأبعدهم عن ابن الزبير بخله بجانب سخاء عبد الملك بن مروان، حتى لقد يقال إن دولة بنى أمية قامت بالمال.

وما أحس حسن بعد هنيهة الا وابن صفوان يقول له : «ان أمير المؤمنين يدعوك، وقد أحب أن يراك» .

فسر حسن لتلك الدعوة لأنه سيغتنم الفرصة للكلام فى المهمة التى جاء من أجلها، ولو كان الكلام فيها لايجدى نفعا.

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان ، وأشار إلى حسن فتبعه حتى دخلا حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذاً وعظيماً وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته وهو فى شدة الاضطراب. وقف حسن فى تلك الحجرة وحيا عبدالله ، فرد عليه التحية ثم قال : «من أين قدمت؟..»

قال حسن : «من الشام» .

فبغت عبدالله عند سماع اسم الشام لأن فيها أعداءه، فقال : «ومـا الذى جـاء بك إلينا ونحن فى هذه الحـال؟.. لعلك جاسوس؟» .

قال حسن : «معاذ الله يامولاى ، كيـف أكون جاسوسا ، وأقوم بما فعلته اليوم؟» .

ثم قال عبد الله : «لا غرابة فيما ظهر منك إذا كنت جاسوسا، فالجواسيس يتلونون تلون الحرباء.. على أنى لا أبالى مهما يكن من أمرك، فما أنا ممن يستعينون بالجواسيس، وإنما أستعين بالحق والعدل» ..

فوقف حسن وهو يقول : «العفو، يامولاى، وانما أنا رسول إليك فى مهمة لا أرى محل للكلام فيها الآن..» .

قال عبد الله : «وماذا تعنى ..؟ من أرسلك الينا من الشام؟.. لعلك قادم من عبد الملك بم مروان بنصيحة؟..» .

قال حسن : « كلا يامولاى، بل أنا قادم من عند خالد ابن يزيد بن معاوية..» .

قال عبد الله : «وهو أيضاً أموى، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك بن مروان ، وإن يكن أعلم منه بالكيمياء والشعر ونحو ذلك» .

قال حسن : «أما الحرب فقد نصبها عبدالملك وليس خالد. ولو عرفت ما بينهما من الدخائل ، لثبت لك أن خالدا أشد رغبة فى بيعة أمير المؤمنين من آل العوام أنفسهم» .

ثم قال : «لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثانى) كما تعلمون، وهذا لم يكن يرى لبنى أمية حقا فى الخلافة كما صرح جهارا فى خطابه بعد أو تولاها بأربعين يوما ، فجمع الناس لصلاة الجمعة وقال لهم : «أنتم أولى بأمركم ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا أختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الأحوال كما هو معلوم حتى آل الأمر إلى مبايعة مروان بن الحكم لأنه أكبر بنى أمية سنا . وكلنا يعلم شأن هذا الرجل فى أمر عثمان ، وكيف أنه قد أوقد الفتنة التى لم نتخلص من عواقبها إلى اليوم . فتولاها مروان بن الحكم دون خالد بن يزيد ، وخالد أحق بها منه ، ولكن بنى سفيان لم يرضوا بيعته حتى عاهدهم أنه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان حدثته نفسه أن يخرجها من نسل معاوية إلى نسلة ، فتزوج أم خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة واتفق أنه بعد بضعة أشهر ، أن مروان أهان خالدا فى شأن وشتمه وأهان أمه ، فخرج خالد إلى أمه وأطلعها على ما كان ، فقالت له:

«دعه ، فإنه لايقولها بعد اليوم» ، وفى المساء جاءها مروان وسألها ، هل أخبرها خالد بما جرى بينهما .

فقالت : «يا أمير المؤمنين ، خالد أشد احتراما لك من أن يذكر لى خبرا جرى بينك وبينه» ، فلما أمسى المساء وضعت على وجهه

وسادة ، وجلست عليها هى وجواريها حتى مات ، ولم يتم السنة فى خلافته . والناس يظنونه مات موتاً طبيعياً ، فخلفه ابنه عبدالملك بن مروان وهو يعلم بالأمر ، فخاف إذا أنتقم لأبيه أن يفتضح أمره ويقال إن امرأة قتلته . ولكنه ظل حاقدا على خالد ، وخالد ينظر إلى عبدالملك نظره إلى من اختلس شيئا هو من حقه . ولهذا السبب قلت لمولاى أمير المؤمنين إن خالدا أشد رغبة من آل العوام فى خلافتك» .

الخطبة

رفع عبدالله رأسه بغتة ، ونظر إلى حسن وهو يقول : «لقد فات الوقت ، ولكن مايقدره الله فهو كائن . ومع ذلك فلا أظن أن خالدا يرى بخروج هذا الأمر من بنى أمية إلى رجل حاربه أبوه» .

ثم قال : «وما هو الأمر الذى جئت من أجله ؟..» .

قال حسن : «انتدبنى خالد لآتى إلى أمير المؤمنين خاطبا» .

قال عبدالله : «من ؟ .. ولمن ..» .

قال حسن : «مولاتى رملة أخت أمير المؤمنين إلى مولاى خالد بن يزيد ، وقد كتب بذلك كتابا ضاع منى فى المدينة لسبب يطول شرحه» .

وقع ذلك الطلب موقع الاستغراب عند عبدالله لاعتقاده بالتباعد بين القبيلتين ، وظل مرتابا فى ذلك الرسول .. فقال له :

«إذا كان خالد كما وصفت فإنى أسر بمصاهرته ، ولكنى أود الاطلاع على كتابه» .

فقال حسن : «سأكتب إليه أطمئنه بالقبول بعد أن يصل كتابه بهذا الشأن . ثم إنى أعرض على مولاى أن أكون فى خدمته لعلى أستطيع أمرا يكون فيه مصلحة له .. فهل ترى أن أذهب إلى الحجاج فأخاطبه فى أمر الهدنة أو الصلح أو نحو ذلك ، فربما كان لكلامى وقع عنده لأنى أعتبر من أتباع بنى أمية فلايشك فى أمرى» .

فقطع عبدالله كلامه قائلا : «لا .. لا .. دعهم وما يفعلون ، إنى لا أريد وساطة» . قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وابن صفوان، فأحس حسن أنه ينبغى له أن ينصرف .. فحياه مودعا وخرج فتبعه ابن صفوان وهو يقول :

«سمعتك تعرض على أمير المؤمنين التوسط لدى الحجاج فى الهدنة ، أو نحوها وأمير المؤمنين لم يقبل . ولكننى أعلم ما نحن فيه من الضنك ، وأن الهدنة تفيدنا فى جمع شملنا لأننا قد تشتتنا .. فإذا رأيت أنك تستطيع شيئا من ذلك فافعل» ..

ذات النطاقين

فمشيا حتى أقبلا على دار الضيافة فرأى حسن أهل الدار فى هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم، فوقف وسأل أحدهم عن سبب هذه الحركة ، فقال له :

«إن ذات النطاقين قادمة إلى دار الضيافة» .

فعلم أنها أسماء بنت أبى بكر ، والدة عبدالله بن الزبير ، ولكنه كان يحسبها قد ماتت لكبر سنها ، لأنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة .. فهى يومئذ كانت قد بلغت السنة المائة من عمرها. وكانت مشهورة برجاحة الفكر وسعة الصدر والتعلق بالدين ،

فأحب أن يراها ، فجعل يزاحم حتى أقبلت .. فإذا هى قد أحدودب ظهرها ، وجاءت تتوكأ على عكاز وبجانبها رجل يسندها ويرشدها إلى الطريق لأنها عمياء . حتى إذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم :

«اتقوا الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام ، وإن كان قليلا فى الأسواق» .

★★★

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بأمر الضيوف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبدالله .. فظنها جاءت تستحث الخدم على إكرام الضيوف لاعتقادها أن ذلك يدفع البلاء عن أهلها .

وكانت أسماء فى غاية القلق على ابنها عبدالله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم .

أما حسن فما صبر إلا حين مر موكب ذات النطاقين ، ثم خرج ومعه خادمه بلال الذى أخبره بوجود والد سليمان فى المسجد . فلما أقبلا على المسجد أسرع حسن حتى اقترب من والد سليمان – وكانت دلائل السفر بادية عليه – وحين وقع بصره عليه صاح فيه : «هل أصاب سمية سوء ؟..» .

قال والد سليمان : «لم يصبها سوء ، ولكنها جاءت إلى مكة..» .

قال حسن : «جاءت إلى هنا ؟ .. أين هى ؟» .

★★★

قال والد سليمان :

«أصبر ريثما نجلس فى أحد جوانب المسجد على انفراد ، وأقص عليك الخبر» ، وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق ، فجلسا فى ناحية وحسن فى قلق شديد ، فلما جلسا قال:

«قل يا عماه .. أين هى سمية الآن ، فقد نفد صبرى .. وكيف تقول إنها جاءت إلى مكة ؟..» .

قال والد سليمان :

«صدقنى إنها جاءت إلى مكة ، ولكنها فى خارجها» ..

فانتبه حسن ، وقال :

«لعلها عند الحجاج بن يوسف ؟..» .

قال والد سليمان : «نعم يابنى .. إنها عنده» .

فصاح حسن وهو لايعى مايقول :

«أخذها ..! وكيف أخذها ؟..» .

قال والد سليمان :

«أخذها زوجة له ، لأن أباها عرفجة زفها إليه يوم أن سافرت وخرجت من المدينة مع الحملة التى بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو رئيس المدينة ..» .

★★★

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بجمود ، وتذكر للحال أنه شاهد تلك الحملة بالأمس مارة قرب مكة ، ومعها هودج يحرسه فارسان ، فارتعدت فرائصه

ثم سأله قائلاً : «هل سيقت إلى الحجاج برضاها ؟» .

قال والد سليمان : «ما أظنها سيقت إلا بالرغم منها ، فقد علمت أن الأمر تم بحيلة من أبيها ..» .

قال حسن : «إذن لابد لى من الذهاب إليها ، فإما أن أنقذها أو أموت فى سبيل ذلك ..» .

ثم فكر حسن برهة وقال لوالد سليمان : «قبل أى شىء أحتاج إليك يا عماه فى رسالة تنفذها ..؟» .

قال والد سليمان : «اكتب .. وأنا بين يديك ..» .

فقام حسن يكتب رسالة إلى خالد بن يزيد يقول فيها :

«إلى خالد بن يزيد من حسن .. أما بعد ، فقد جئت البيت الحرام بعد أن مررت بالمدينة ، وأضعت فيها كتابك إلى ابن الزبير . ولذلك قصة سأرويها عن اللقاء . ومع ذلك فقد خاطبت ابن الزبير شفاها فى الأمر ، على حين كان مشغولا بالحصار فأجاب بالرضا ، ولكننى رأيته يسأل عن كتاب منك فى هذا الشأن .. فإذا شئت فاكتب إليه وأبعث الكتاب مع حامل هذا ، فإنه ثقة .. وأنا باق هنا لأمر يهمنى كثيرا ، والسلام عليك ورحمة الله» ..

ثم سلم الكتاب إلى والد سليمان ، وقال له :

«أمض بأسرع مايمكن ، وأحذر أن يعترضك الحراس حول مكة» .

قال والد سليمان : « لقد دخلت ولم ينالوا مني مأربا ، فكيف بخروجى .. وها أنا أترك بلالا فى خدمتك » ، فأثنى عليه حسن وودعه ، وعاد إلى التفكير فى سمية .. فرأى أن يذهب إلى معسكر الحجاج يبحث عنها ، لعله يستطلع خبرها فيقف على الحقيقة .

لم يعد يستطيع صبرا ، فعزم على الذهاب إلى معسكر الحجاج بحجة أنه مندوب من قبل ابن الزبير للمفاوضة بشأن هذه الحرب ، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير إذا خابر الحجاج بشأنه وهو لايريد ، فنهض وأسرع إلى بيت ابن صفوان فلم يجده فى البيت ، فالتمسه فى دار ابن الزبير .. فدخل القاعة التى كان فيها الاجتماع بالأمس فلم يجد أحدا . وبينما هو عائد ، مر بمرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة ، فوقع نظره علي رجل من خدم ليلي الاخيلية يتوسم فيه الخير ، فناداه فأسرع اليه ، فقال له : « ما الذي جاء بك إلى هذا المكان ؟» .

قال الخادم : « جئت مع مولاتى .. » .

قال حسن : « وهل ليلى هنا الآن ؟ .. وأين هى ؟» .

قال الخادم : « هى عند أمير المؤمنين فى بيته ، وأظنها فى حجرة والدته ذات النطاقين» .

قال حسن : « ومن أين أتيتم ؟» .

قال الخادم : « من معسكر الحجاج» .

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه إن ليلى لابد أنها اطلعت على الحقيقة ، وربما رأت سمية وسمعت منها شيئا .. فلم يعد يصبر على لقائها ، فجعل يتمشى خارج البيت ، وهو كلما سمع حركة أو صوتا ظنها خارجة ، حتى مل الانتظار فعاد إلى الخادم وقال له : « هل أقمتم فى معسكر الحجاج طويلا ؟» .

قال الخادم : « أقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتى تسرع إلى مكة ، وقد أرسل الحجاج معها من يرافقنا لئلا يعترضنا الجند المحيط بها » .

فأدرك حسن أنها جاءت بإشارة الحجاج ، فزادت رغبته فى مقابلتها واستطلاع حقيقة الأمر . وفيما هو يفكر فى ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار يهرول . ولما تلاقت الأبصار ، أقبل ابن صفوان وهو يقول : « أحمد الله أنى رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا لأفتش عنك مخافة أن تكون قد مضيت فى الأمر الذى انتدبت نفسك له بالأمس » .

قال حسن : « وماذا تعنى ؟» .

قال ابن صفوان : « اعنى مفاوضة الحجاج» .

قال حسن : « وما الذى حدث ؟» .

قال ابن صفوان : « جاءت ليلى الاخيلية لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين جوابا أكد لى أنه لايرجو صلحا ولا هدنة ، لأن الحجاج لايرجو غير التسليم ... وهذا أمر مستحيل عندنا ، والموت أهون منه علينا » .

فقال حسن : « وأين هى ليلى الآن؟» .

قال ابن صفوان : « هى فى دار النساء ، وقد نزلت عند مولاتى ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها أيضا» .

قال حسن : « وهل من سبيل لى إليها ؟ .. فإنى أرغب فى لقائها » ..

قال ابن صفوان : «هل أخبرها بأنك تطلب رؤيتها ؟» .

قال حسن : « افعل .. » .

عند جهينة الخبر اليقين

فدخل ابن صفوان ثم عاد وهو يشير إليه أن يتبعه ، فدخل غرفة رأى فيها ليلى وحدها فى انتظاره .. فلما أقبل عليها صاحت فيه : « هل أنت حسن حقيقة ؟ ..» .

قال حسن : « ولماذا هذا الاستفهام ، وأنت تعرفيننى ؟» .

قالت ليلى : « لأننى سمعت أنك تائه ، وأكدوا لى أنك قتلت» .

قال حسن : « كدت أن أقتل ، ولكننى الآن حى .. فأخبرينى قبل كل شىء ، هل كنت فى معسكر الحجاج ؟» .

قالت ليلى : «نعم .. » .

قال حسن : « وهل رأيت سمية هناك ؟ ..» .

قالت ليلى : « نعم .. رأيتها» .

فخفق قلبه عند سماع ذلك الجواب الصريح ، ولم يصدقه ..

ثم قالت ليلى : « رأيتها ورأتنى ، وكلمتها وكلمتنى ..» .

قال حسن : «بالله قولى كيف حالها ، وما الذى جرى لها ، وماذا تم من أمرها ؟» .

قالت ليلى : « لعلك غائب عن الدنيا ؟ .. ألم تعلم أنها حملت إلى الحجاج ليعقد عليها ؟ ..» .

فلما سمع حسن ذكر العقد انزعج انزعاجا شديدا ، وصعد الدم إلى وجهه ، وقال وهو يتجلد : « نعم .. علمت .. فهل تم العقد ؟» ..

قالت ليلى : « نعم .. كتبوه منذ يومين ، وهى الآن فى داره مع نسائه» ..

قال حسن : « فى داره مع نسائه .. مع نسائه ؟ ..» .

قالت ليلى : « نعم ... مع نسائه» .

قال حسن : « وهل ذكرتمانى فى حديثكما ؟ ..» .

قالت ليلى : « ذكرناك وبكينا عليك ، وهى التى أخبرتنى بموتك» .

قال حسن : «وهل هى حزينة على موتى ؟ ..» .

قالت ليلى : « أما قلبها فهو معك ، فهى لاتكف عن ذكرك لحظة .. وبالرغم من يأسها من لقائك فإنه لا يهنأ لها العيش بدونك » .

فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك ، وقال : « إذا كان الحجاج كتب كتابه عليها كما تقولين وهى يائسة من لقائى ، فكيف أرجو اللقاء ؟ .. » .

قالت ليلى : « الحب كله رجاء يا حسن .. إن الحب يضع الرجاء فى موضع اليأس » .

قال حسن : « هى باقية على حبى إذن ؟» .

قالت ليلى : « نعم .. رغم أنها لاترجو لقاءك .. فكيف إذا علمت أنك على قيد الحياة ؟ .. فهل أنت تحبها مثل حبها لك .. ؟» .

قال حسن : « كيف لا ؟» .

ثم قال : «وهل زفت إلى الحجاج حقيقة ؟ .. » .

قالت ليلى : « قلت لك إنها زفت إليه ، وهى فى داره مع سائر نسائه ... » .

قال حسن : « أعوذ بالله من ذلك .. لا أصدق أنها فى بيته مثل إحدى نسائه وكيف هو ؟ .. هل يحبها ؟ » .

قالت ليلى : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بأنه سيفوز بها لأنها لا تريده ، ولكن الأقدار ساعدته فحملوها إليه قسرا »

فجمد الدم فى عروقه ، وقال : «إنى أطير إليها ، وأختطفها من وسط بيته ، ومن بين مخالبه ..» .

فقطعت ليلى كلامه ، وقالت : « تبصر يا حسن ، إن دون الوصول إليها عقبات لايستطاع تجاوزها إلا بالحكمة» .

فصرخ حسن : « كيف يمسها الحجاج وأنا حى ؟» .

فلما رأت ليلى شدة هياجه خافت عليه الموت ، لعلمها بما يعترض سبيله إلى سمية من الأخطار ، وبخاصة لما تعلمه من ظلم الحجاج وقسوته ، فإذا وقع حسن بين يديه فلا عقاب له غير الموت ، فقالت له : « أسلم معك إن الحب لاسياسة فيه ولا حكمة، ولكن المحب حريص على حياته من أجل حبيبته .. فبدلا من أن تستبقى حياتك لتفرح سمية بك فإنك تعرضها للخطر عمدا ! .. تبصر فى الأمر ، وأنا فى خدمتك حتى تبلغ ما تريد .. فإنى أعرف قيمة الحب ويسوءنى أن أرى حبيبين لايجتمعان ، كما أنى أنقم على من يسعى فى التفريق بينهما .. » قالت ذلك وتنهدت وأبرق الدمع فى عينيها ..

فشعر حسن أنها تنطق عن إحساس حقيقى ، لأنها أصيبت بحب «توبة» ومنعوها منه ، فقال : « بورك فيك يا ليلى .. والله إنك خففت عنى نصف المصاب بهذه المشاركة ، فأشيرى على» .

سمية فى بيت الحجاج

قالت ليلى : « لا أخفى عنك أنى جئت إلى معسكر الحجاج وافدة على عادتى فى الوفود على الأمراء والملوك ، فرحب بى الحجاج وأنزلنى فى دار إحدى نسائه .. وهى أعزهن عليه ، وأسمها هند بنت النعمان ، إنها جميلة ذات حسب ونسب ، ولكنها لاتحبه ولا تحترمه .. فلقيت سمية عندها ، فلما عرفتها دار الحديث حولك فلما سمعت بفقدك شق ذلك عليَّ ، وقلت لعلى إذا جئت مكة أستطلع خبرا عنك .. فعرضت على الحجاج أن آتى إلى مكة وأحرض ابن الزبير على التسليم، وأنا أعلم أن تسليمه أمر مستحيل . ولكننى فعلت ذلك حتى آتى تحت حمايته .. ولما جئت سألت عنك فأخبرونى أنك جئت بالأمس ، وخطبت رملة لخالد فأجابك بالرضى .. ولكنه استمهلك ريثما تنقضى هذه الحرب ، فسررت سرورا مضاعفا ، أولا لأنك حى .. وثانيا لأنك نجحت فى المهمة التى جئت من أجلها ، فالرأى الآن أن أعود إلى معسكر الحجاج ، وأجعلك راويتى (لأن لكل شاعر عند العرب راوية يرافقه فيحفظ أشعاره ويرويها عنه) والحجاج لايعرفك ولا يخطر له أنك تنافسه علي سمية ، فمتى وصلنا إلى المعسكر وأقمنا فيه آمنين نحتال فى أمر سمية بما يوفق لنا » ..

★★★

فاستحسن حسن رأيها ، وقال : « نذهب إذن معا .. هلم بنا الآن ، فإنى لا أصبر على هذه الحال» .

قالت ليلى : «اسبقنى إلى المسجد ، وأنا أودع ذات النطاقين والحق بك» .

قال حسن :

«لقد أنسانى حديث سمية استطلاع ما دار بينك وبين ابن الزبير من أمر الصلح أو التسليم» .

قالت ليلى :

« كنت على يقين قبل أن أتحدث معه بهذا الحديث أنه لن يقبل ، ولكننى رأيت أمه أسماء ذات النطاقين أكثر تعلقا منه بذلك. إنى معجبة بهذه العجوز وصبرها على المكاره ، فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فى دعوته .. ولكننى لا أرى فائدة من ثباته ، وقد رأيت معسكر الحجاج ورأيت معسكره .. والفرق بينهما واضح من حيث العدد والعدة وكل شىء» .

معسكر الحجاج

لما خلا حسن بنفسه بدأ يجهز عدته لينفذ عزمه على دخول معسكر الحجاج بن يوسف ، وأسر لبلال بغرضه من ذلك .

فقال له بلال : «أكون فى خدمتك يامولاى» .

فقال له حسن : «بورك فيك .. ولكنى ذاهب إلى مهمة لا تخلو من الخطر ، فإذا انكشفت فيها لاينفعنى أحد .. فأرجو منك ان تبقى هنا .. فإذا استبطأتني فاطلبنى فى معسكر هذا الطاغية» .

ثم بدل حسن ثيابه بحيث لايفطن له عارفوه إلا بالتأمل الدقيق، وحمل جرابا فيه أدراج من الورق عليها بعض القصائد . ومكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت الجمل كبعض الرجال، وفى ركابها خادم .. فركب هو جمله وسارا والخادم يمشى وراءهما .

وما لبث حسن وليلى أن لاقاهما رجال الحجاج فعرفوا ليلى فلم يعترضوها .. ومازالا سائرين حتى أقبلا على معسكر الحجاج ، فنظر حسن إلى ذلك المعسكر والأعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، وقال :

«يا ليلى إن النصر سيحالف هذا الطاغية لا محالة .. وإنى لينفطر قلبى كلما تصورت مصير عبدالله بن الزبير . أتظنينه مغرورا بنفسه ؟» ..

قال ليلى : «كلا ، ولكنه يعتقد أنه على الحق .. ولذلك فإنه لايخشى الموت ..» .

قال حسن : «ما الذى أراه على هذا الجبل ؟» .

قال ليلى : «ألم تر وقوع الأحجار على الكعبة ؟ فعلى هذا الجبل (جبل أبى قبيس) نصب الحجاج منجنيقاته وهو يرمى الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند ..» .

قال حسن : «وأين خيام النساء من هذا المعسكر حيث يقيم نساء الحجاج ومعهم سمية» .

★★★

وأدركت ليلى مافى نفس حسن ، فقالت :

«نحن سائرون الآن إلى خيمة الحجاج ، وهى الكبيرة القائمة فى وسط هذه الخيام ، فأدخل أنا لأحدثه عن مهمته بما يحضرنى من الكلام ، ثم أخرج وأسير بك إلى مكان أعرفه ، وأذهب إلى منزل هند بنت النعمان إحدى زوجات الحجاج وأرى سمية هناك ، فأقص عليها خبرك ونضرب موعدا تخرجان فيه من هذا المعسكر فى غير ضجة» فسر حسن بهذا الكلام وإن كان بعيدا ..

وكانا قد وصلا إلى المعسكر ومازالا يسيران حتى أقبلا على خيمة كبيرة أمامها أناس مدججون بالحراب وآخرون بالسيوف ، يشبهون فى ذلك الحراس عند الروم . وكان بنو أمية قد اقتبسوا ذلك منهم، ثم توخاه مندوبوهم إرهابا للناس لأن دولتهم إنما كانت دولة إرهاب وأطماع . وقبل وصولهما إلى الباب أناخا الجمال ونزلا ، فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير فى أثرها حتى وقفت بباب الخيمة .. فدخل أحد الوقوف يستأذن لها ثم عاد وهو يدعوها ، فدخلت وظل حسن فى جملة الوقوف وهو فى شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم أعماله .. فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فإذا هو جالس فى صدرها على سجادة ثمينة ، وقد تربع ووضع السيف على فخذيه ، ورآه لما دخلت ليلى قد رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقع أن يكون ، لأن الحجاج كان رقيق الصوت إلا إذا استفاض فى الخطابه فيرتفع كثيرا . وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى ، فإذا هو مقطب الوجه لايرى فى وجهه ميلا للابتسام أو الضحك . والواقع أنه قلما كان يرى ضاحكا ..

الانتظار صعب

وبينما هو ينظر إليه ، لاحت منه التفاتة إلى من فى مجلسه ، فرأى بينهم رجلا لم يقع بصره عليه حتى اضطربت كل جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته .. كيف لا ، وهو عرفجة ، فقد رآه جالسا بجانب الحجاج . فاستولت على حسن رعدة لشدة التأثر ، وبخاصة حين علم أن عرفجة لم ينل ذلك المنصب إلا بتضحيته بابنته

سمية ، فهاجت عواطفه حتى حدثته نفسه أن يفتك به وينتقم منه . ولكنه مالبث أن عاد إلى رشده وأدرك مايحيط به من الأخطار إذا انكشف أمره فتجاهله ، وحول وجهه إلى خارج المعسكر لئلا يكشف أحد خبيئة نفسه . وخاف أن يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة أخرى ، فمشى وهو يتظاهر أنه يسير بغير انتباه حتى بعد عن خيمة الحجاج.

وبعد برهة سمع ليلى تناديه ، فسار فى أثرها والجراب معلق فى كتفه ، ومايشك الذين يرونه إلى جانبها أنه راويتها . وبعد أن قطعت مسافة فى المعسكر ، قالت : «انظر إلى هذه الخيمة بجانب هذه الراية ، أنها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، وستقيم فيها ريثما آتيك أو أبعث إليك» .

قال حسن :

«وسمية ؟.. ألا أستطيع رؤيتها الآن ؟ .. خذينى معك .. اجعلينى خادما لك أو تابعا أو أى شىء ، وهيئى لى السبيل كى أرى سمية» .

فأشفقت ليلى عليه ، وقالت له : «سر فى أثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء ، وتظاهر أنك تحمل لى هذا الجراب حتى تضعه فى الخيمة التى نحن سائرون إليها ، ومتى وصلنا أدبر لك حيلة لتشاهدها وتخاطبها» .

وبعد هنيهة ، وصلا إلى خيمة لها عدة أبواب وحولها خيام أخرى صغيرة ، فقالت له ليلى : «امكث تحت هذه النخلة ،ومتى دعوتك أدخل» .

أما ليلى فإنها دخلت الخيمة - ولها أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب فى بناء الخيام - فدخلت القسم الذى فارقت هندا فيه ، فرأت هندا متكئة وسمية متكئة إلى جانبها لا تتكلمان . فلما رأتا ليلى رحبتا بها واستقبلتاها ، فآنست ليلى فى وجه هند انقباضا ، وكانت سمية تعزيها وتخفف عنها فقالت :

«ما بالى أرى هنداً غضبى ؟» .

قالت سمية : «من يقترب من هذا الظالم العاتى ولا يكون منقبضا ؟ ، إنه لايترك وسيلة لايثقل بها على نسائه وأهل بيته» .

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج فلم تستغرب ذلك ، ولكنها اغتنمت الفرصة وأجابت سمية قائلة : «أراك تشكين من الحجاج وقسوته وأنت لم تعرفيه إلا بالأمس ، وهو مغرم بك وفى رأيه أنه فاز فوزا عظميا حين ظفر بك» .

فقطعت سمية كلامها قائلة : «لم يظفر بشىء ولن يظفر به إن شاء الله» ..

فقالت ليلى : «عجبا لما تقولين ، وأنت فى داره وبين يديه ليلا ونهارا» ..

فأشارت بعينها أنها تكتم أمرا لاتريد أن تبوح به أمام هند .

فاستغربت ليلى قولها ، وتظاهرت أنها تريد مخاطبتها فى شأن ، فدخلت بها إلى خيمتها الخاصة .. فاستقبلتهما أمة الله خادمتها الحبشية ، وكانت تهيئ طعاما لسمية ، فلما دخلتا خرجت الخادمة .. فقالت ليلى : «رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين

منه وهو زوجك الشرعى .. فكيف تقولين إنه لم يظفر بشىء؟..» .

السم الزعاف

فرفعت سمية رأسها ، وقد بدا التأثر فى عينيها وشفتيها ، وقالت :

«صدقينى يا ليلى إنه لم يظفر بى بالرغم من عقد العقد .. ولم يكن ذلك تفضلا منه ، فهو مجبر على ذلك بسبب قسم سبق لسانه . وثقى أنه لن يظفر بى ، فقد أعددت وسيلة أنجو بها منه إلى حبيبى ...» ، قالت ذلك وسالت دموعها وهى صامتة فازدادت ليلى مشاركة لها ، ولكنها استغربت قولها إنها أعدت وسيلة للنجاة إلى حبيبها وقالت :

«وأية وسيلة أعددت ؟.. وأين هو حسن الآن» .

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تستطع أن تمنع نفسها عن البكاء ، وليلى تهم أن تطمئنها عن حسن ، وتخاف أن يصيبها سوء من البغتة .. فقالت : «إذا كنت تحبيننى لاتخفى عن سر هذا الأمر ، وأنا خادمة لك إلى آخر نسمة من حياتى .. قولى .. لاتخفى عنى شيئا ..» .

فقالت وهى تمسح دموعها : «أما السبب فى أنه لم يظفر بى ، فلأنه أراد أن يطوف بالكعبة فى آخر الحجة الماضية .. فمنعه ابن الزبير من ذلك ، فأقسم أن لاينزع السلاح عنه ولا يقرب النساء حتى يقتله» .

فتذكرت ليلى أنها كانت لا ترى الحجاج إلا بسلاحه حيثما كان ، ليلا أو نهارا ، وسرت لهذا الخبر لأنه يشرح صدر حسن ، ثم أرادت أن تستطلع كيفية نجاتها ، فقالت : «وكيف تقولين إنك دبرت وسيلة للنجاة ؟» .

فمدت سمية يدها إلى جيبها وأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فإذا داخلها قطعة من الجلد فتناولت سمية ذلك الجلد بين أصابعها وهى تقول :

«إن الفرج يأتينى من هذا الدواء ...» .

فقالت ليلى : وما ذلك ؟» .

فقالت سمية : «هو سم احتفظ به حتى إذا تحققت من وقوع الخطر تناولته ، فيذهب بى إلى مكان أرجو أن ألاقى حسنا فيه» ..

فرأت ليلى أن تبوح لها بالسر ، فقالت : «وما قولك إذا لاقيت حبيبك وأنت على قيد الحياة ؟..» .

فتفرست سمية فى وجه ليلى ، وهى تحسبها تمزح ، وقالت : «لاتحببى الحياة إلىَّ ، فإن لقائى إياه فى العالم الآخر خير وأبقى» .

قالت ليلى : «لاتقطعى الأمل ياسمية» .

فأجابت سمية :

«لست أبالى .. أقطعت الأمل ، أم لم أقطعه ، فان مدة عذابى فى هذا العالم أصبحت قصيرة .. ولابد من انقضاء هذه الحرب ،

فإذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائى فى هذه الورقة ، وإذا مات .. ولكن مـا الفـائدة من بقائى فى هذه الدنيا وحدى ؟» .

★★★

فقطعت ليلى كلامها وقالت :

«إذا بقيت على قيد الحياة ، فإنك لاتكونين وحدك لأن حسنا مازال حيا» .

فلما سمعت سمية ذلك بغتت ، وعادت إلى التفرس فى وجه ليلى ، فرأت الجد باديا فى عينيها فوثبت من مجلسها ، وقالت :

«بالله .. قولى إنه باق فإن بقاءه يحيينى ..!» .

فقالت ليلى : «لسنا فى حلم وإنما نحن فى يقظة ، قد آن لك أن ترى حسنا .. إنه فى أنتظارك على مقربة من هذا الخباء ، وسأدعوه إليك لتتلاقيا» ثم خفضت صوتها وقالت : «وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر» .

ضاع ثانية !

وكانت سمية تسمع قول ليلى ولا تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ، وخاصة حينما سمعت أن حسنا بالقرب منها .

فهرولت إلى شق فى الخيمة ونظرت إلى الخارج – وكان الليل قد أسدل نقابه – فلم تر أحدا ، فنادت أمة الله فأسرعت إليها وقد أنارت السراج ودخلت به ، فقالت لها سمية :

««هل رأيت أحدا جالسا حول هذا الخيام» .

قالت الخادمة :

كلا يامولاتى ، ولكننى رأيت رجلين سارا معا وخرجا من المعسكر» .

فقالت ليلى :

«هل رأيت مع أحدهما جرابا ؟» ..

قالت الخادمة : «أظننى رأيت أحدهما يحمل جرابا» .

أما سمية فخامرها شك فى قول ليلى ، ولكنها تحققت من صدقها لما بدا فى عينيها من دلائل الاهتمام ، فقالت لها :

«ماذا عسى أن يكون سبب ذهابه ؟ .. وإلى أين ؟» .

قالت ليلى :

«لايخلو أن يكون ذهابه لأمر ذى بال ، فقد جاء معى وهو لايصدق أنه يحظى برؤيتك .. ولا أظنه قد غادر هذا المكان إلا بالرغم منه . ولعله يعود الليلة ، فلنترقب رجوعه .. ولكن من هو ذلك الرفيق ؟.. فإن حسنا غريب فى هذا المعسكر ، وقد جاء إليه متنكرا فكيف عرفوه ؟» .

ثم دخلتا الخيمة ومكثت سمية وهى مطرقة ، وخرجت ليلى إلى خيمة هند ، وهى تكتم مافى نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا .

أما سمية فنادت امة الله ، وكانت هى أنيستها فى وحشتها ، وهى وحدها تعرف مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابا ولا جاءتها ، فأعادت النداء فلم يجبها أحد .. فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت إلى حيث تتوقع أن تراها فرأت من خلال الظلام شبحين ، كانت أمة الله أحدهما ، والثانى بلباس الرجال .

فخفق قلبها لأنه خيل إليها أن الشبح الآخر هو حبيبها حسن ، فلم تصبر عن أن تنادى قائلة :

«أمة الله ..» .

فقالت أمة الله :

«لبيك يامولاتى إنى قادمة على عجل» .

قالت ذلك ، وظلت واقفة مع الرجل ، فانشغل بال سمية ولم تعد تستطيع صبرا ، وهمت بالمسير نحوهما .. فرأتهما قادمين نحوها . فتقدمت أولا أمة الله وحدها ، وظل الرجل واقفا على بعد خطوات ، ولكنها تبينت قيافته فإذا هو بلباس حرس الحجاج .. فتشاءمت منه ودخلت الخيمة مسرعة وأمة الله في أثرها . وكانت أمة الله قد أدركت اضطراب سيدتها من منظر ذلك الرجل ، فابتدرتها قائلة :

«لاتخافى يامولاتى ، إن الرجل رسول خير» .

قالت سمية : «ممن ؟» .

قالت أمة الله وقد خفضت صوتها : «من حسن» .

فبدت البغتة فى وجهها ، وقالت : «ليدخل» .

فخرجت أمه الله ثم عادت والرجل معها ، وعليه لباس الحرس ، فكان لحرس الأمراء لباس خاص لأن معاوية اقتبس فكرة الحرب من الروم ، وميزهم بعلامات خاصة . فوقفت سمية لاستقباله وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره .

أما هو فلما دخل حياها باحترام ، وقال لها بصوت منخفض : «لايزعجك أمرى يامولاتى ، ولا يخيفك هذا اللباس ، فإنى خادم لك ولمولاى حسن ..» .

فلما سمعت صوته وتفرست فى وجهه ، عرفت أنه عبدالله خادم حسن ، فصاحت فيه : «عبدالله ؟.. وما الذى جاء بك إلى هذا المعسكر ؟.. وأين حسن ؟ .. هل هو على قيد الحياة كما يقولون ؟» .

فقال الخادم :

«نعم ياسيدتى إنه على قيد الحياة ، ولم أكن أعرف ذلك إلا فى هذه الساعة .. وهو مختبىء على مقربة من هذا المكان حيث لايراه أحد ، لأنه جاء متنكرا ولم ينتبه له إلا أبوك فدس إلى الأمير أن يقبض عليه .. وقد أطلعت أنا على هذا العزم فأسرعت إليه وأنبأته بالمكيدة ، وخرجت به إلى مخبأ بقرب هذا المعسكر ، وجئت لأنبئك بذلك حتى نهيىء حيلة تخرجان بها إلى حيث تشاءان ، وأنا فى خدمتكما» .

فقالت سمية :

«سامح الله والدى .. لا ، لا .. لا سامحه الله ، لقد أصبحت أكره اسم عرفجة ، وأكره أن أراه من أجل هذه المعاملة .. آه ياربى، ما العمل ؟.. ما الحيلة ؟.. عبدالله .. قلى لى هل حسن فى مأمن ؟» .

قال الخادم :

«نعم يامولاتى إنه فى مكان أمين ولا بأس عليه» .

فقالت سمية :

«وكيف أدخلت نفسك فى زمرة الحرس ، وكيف خفى أمرك على الحجاج وعلى والدى ؟» .

قال الخادم :

«إن حكايتى طويلة ، وخلاصتها أنى لما يئست من لقاء مولاى حسن فى المدينة ، وكنت قد عثرت على جمله مصاباً ، وعثرت على خرجه فأخذت محتوياته وفيها كتاب خالد بن يزيد إلى عبدالله بن الزبير ، والكتاب سرى ولابد من إيصاله إلى صاحبه .. لم أر خيرا من المجىء إلى مكة ، فوجدت رجال الحجاج يحيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع أحد الدخول إليها ، وبخاصة أنا ومعى ذلك الكتاب .. فلاح لى أن أحتال فى دخول معسكر الحجاج لعلى أتنسم خبرا عن سيدى .. ولكننى أعلم أن الحجاج رجل شديد داهية ، فربما اشتبه فى أمرى فيأمر بقتلى .. فعزمت على أن أتقرب بذلك الكتاب إليه ، وأنا لا أرى نفعا منه بعد ضياع مولاى .. فتظاهرت بأنى قادم على الحجاج فى أمر ذى بال يهمه، وجئت معسكره وطلبت أن أخلو به سرا فأذن لى ، ثم أخرجت له ذلك الكتاب وأنا أعلم أنه ليس فيه ذكر لمولاى حسن ، وإنما هو خطاب من خالد بن يزيد إلى عبدالله بن الزبير فى أمر خطبة أو نحوها ، فتظاهرت بأنى عثرت على هذا الكتاب مع رجل قادم من الشام .. ولما رأيت عليه اسم عبدالله بن الزبير اشتبهت فى أمره فقتلت حامله وجئت بالكتاب إليه . فلما سمع الحجاج ذلك منى أحسن بى الظن وقربنى منه ، وجعلنى من حرسه كما ترين .

ومكثت فى جملة الحرس وأنا أتفقد الأحوال وأستطلع الأخبار، حتى جاءنا مولاى فى هذا النهار مع ليلى الأخيلية – وقد تنكر – فعرفته ولم يتنبه هو لى ، ولا أنا أردت أن يعرفنى لئلا ينكشف

أمران . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان والدك مع الحجاج فى الخيمة ، فلما خرجت ليلى رأيت فى وجه والدك الغدر ، وسمعته يخاطب الحجاج فأصغيت ، فإذا هو يشير بأصبعه إلى ليلى ويقول :

«إن راويتها جاسوس متنكر» ، وأشار بالقبض عليه .. فأدركت أن والدك عرفه وتحققت أنه إذا ظفر به قتله لا محالة . فاحتلت فى الخروج إليه حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخيام ، وعرفته بنفسى .. فأخبرنى أنك هنا وأنه جاء من أجلك فذهبت به إلى مكان خرب وراء هذا المعسكر ، لايهتدى أحد إليه ، ووعدته أن آتى إليك وأطلعك على أمره لندبر حيلة للفرار من السجن» ..

وقالت سمية :

«بورك فيك ياعبدالله ، وإذا اتيحت لنا النجاة على يدك جعلنا لك حظا من سعادتنا ..» .

فقال عبدالله :

«إن النجاة قريبة إن شاء الله ، ولكن لابد من الصبر .. فاسمحى لى بالانصراف الآن لأعود إلى مكانى لئلا يشتبهوا فى أمرى» ، فاستوقفته ، وقالت له : «إلى أين ؟.. وكيف تترك حسنا وحده فى ذلك المكان الخرب ؟.. ومن أين يأكل ؟.. وأين ينام؟..» .

فقال عبدالله :

«هل تظنين أننى تركته ولم أعد إليه ؟.. كونى فى راحة وهدوء، فإنى أحرسه وأدبر له كل مايحتاج إليه ..»

وسيلة الفرار

أما حسن فقد اختبأ فى مكان خرب بجانب المعسكر يطل على الطريق المؤدى الى مكة ...

.. ولبثت ليلته لم يغمض له جفن ، وهو يعمل فكره فى حيلة تنجو بها سمية من الحجاج .

وفى الصباح صعد حسن على أكمة اشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى رسولا ، فرأى بينه وبين المعسكر ارضا خالية .. وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر ولم يمض قليل حتى ظهر الرجل بلباس أهل البادية ، ثم تبين له من ملامحه انه خادمه عبدالله ، فلما وصل واشار اليه أن ينتظر فى المكان الخرب ، ولا يظهر نفسه على تلك الصورة ، فقال له حسن : « ما وراءك الآن ؟» ..

قال عبدالله : أبشرك اولا أن الحجاج لم يتزوج سمية» .

قال حسن : «وكيف عرفت ذلك ؟» .

قال عبدالله : «عرفت من ثقة ، فقد أخبرتنى به ليلى الاخيلية وهى التى ساعدتنا فى تدبير الحيلة للخروج» .. وذكر له أمر القسم الذى أقسمه الحجاج ، فانشرح صدر حسن بهذه البشارة لأنه يكره أن يمسها احد ، فقال : «وماالذى دبرتموه ، فإنى أرانى ذليلا بخروجى هاربا على هذه الصورة ، ويخيل لى أن سمية لاترضى بهذا الضعف» ..

قال عبدالله : إن الأمر على عكس ما تظن ، فإنها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما لأن بقاءك بالمعسكر ربما كان سببا للفتك بك وبها .

فقد جئت اليك بتدبير استقر رأينا عليه فى هذا الصباح ، وهو أن أترك هذا الجمل عندك وأعود ، وأنت تتأهب للركوب فى العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التى تراها امامك ، فتلاقينا هناك أنا وسيدتى سمية وكل منا على هجين ومعنا المئونة اللازمة للسفر فى الصحراء أياما ، ومتى بعدنا عن مكة كنا فى مأمن» ..

فاطمأن بال حسن ، وجلس يتناول طعاما أحضره له عبدالله.. ولم تمض برهة حتى سمع وقع حوافر الخيل ، فإذا هو ببضعة وعشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع لا يظهر من وجوههم غير حدقات عيونهم ، يتقدمهم عبد عرف لأول وهلة انه قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا إلى المكان ، أشار قنبر بيده الى حسن وقال : هذا هو ، فامسكوه ، فأحاطوا به من كل ناحية ، فلم ير حسن بدا من التجلد ، فقال لهم : «ما بالكم ؟ .. ما الذى تطلبونه ؟» .

فأجابه قنبر وهو يضحك ضحك الاستهزاء : «إن الأمير يدعوك إلى وليمة العرس» ..

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف ذلك العبد ، وقال له : «اخسأ ياعبد السوء.. لست أسألك» ..

وما أتم كلامه حتى رأى الفرسان قد احدقوا به وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضه سيفه وقد ثارت الحمية فى رأسه وقال لهم : «لا يغرنكم عددكم ، ولاتظنوا إنى أهاب سيوفكم وخيولكم ، ولا تحسبوا أنكم تأخذونى بالإرهاب أو بالعنف.. فإن أمرا تدعوننى إليه بالحسنى تروننى مصغيا إليه ، وأما بالعنف فلن

تنالوا منى شعرة قبل أن يقطر سيفى من دمائكم . قال ذلك وقد أخذ الهياج منه مأخذا عظيما، ولم يعد يبالى بالحياة .

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير حدقتى عينيه من خلال اللثام، وقد شهر السيف بيده وقال : «نراك تظهر من الضعف قوة ، وما أنت إلا جاسوس نذل.. لا أحسبك تحتمل ضربة من هذا السيف» ..

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وعمى بصره وصاح فيه : «ويلك .. أتخوفنى بسيفك ولست أرهب كل هذه السيوف .. فإذا اردت النزال فانزل نتضارب راجلين ، ولا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل. وإذا خفت انفرادك، فانزلوا جميعا وأنا استعين عليكم بالله» . فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، ثم قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : «لو أن الأمير أمرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون ، ولكنه أمرنا أن ان نقودك اليه أسيرا .. فامش» ، قال حسن : لا أسير ماشيا وانتم راكبون ، فإما ان اركب معكم او أن تمشوا معى. فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه، وحسبوا له حسابا.. وجعلوا يتسارون فيما بينهم : ماذا يفعلون ؟ فأشار بعضهم بقتله ، فقال آخرون إن الأمير لم يأمرهم بذلك ، فاستقر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون المعسكر وللحجاج فيه رأيته. ويندر ان يساق الى الحجاج منهم وينجو من القتل ، فإنه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم فى حياته فبلغوا مائة الف وعشرين الفا ، ووجدوا فى سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفا، فرأى الفرسان ان يعاملوا حسنا بالحسنى ، ويتركوا أمر الإيقاع به الى الحجاج .. فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه اولا ، وقال له :

«لو كنا مأمورين بقتالك لقاتلناك ولكننا جئنا لنحملك الى الأمير» ..

قال حسن : قلت لكم إنى لا أسير معكم ماشيا، وأنتم راكبون.

وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يعجب لصبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ولغتهم :

«امش يا هسن .. وهل أنت اهسن منى ؟ فها انا ماش ايضا» ..

فلما سمع حسن كلامه لم يتمالك ان جرد سيفه وصاح فيه : «اذا تكلم الناس فاخرس انت ياعبد النحس .. وإلا فإنى أجز رأسك بحد هذا السيف» ..

فما كان من قنبر الا أنه ضحك حتى كشر عن اسنانه ، ثم قال «اقتلنى .. اقتلنى.. وبعد قليل نرى من يقتل منا .. ولكنك لا تلام وان حزين على سمية لأنها هرجت (خرجت) من يديك.. تعال يا مسكين وانظرها بين نساء الأمير وهى تدهك (تضحك) عليك ومولاى عرفجة يسلم عليك .» .

فلما سمع حسن ذكر سمية وعرفجة ، ورأى ذلك العبد يحتقره ويهزأ به ، هاج غضبه .. ولكنه امسك نفسه ، وقال له : «لولا خوفى ان يقال إنى لطخت سيفى بدم عبد لئيم لأطرت رأسك ولكنى ارجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن» .

على الباغى تدور الدوائر

فلم يزدد قنبر إلا وقاحة واستخفافاً فتقدم نحو حسن ويده على قبضة سيفه وقال: «ألمثلى تقول هذا الكلام ياحسن ، والله انى ضاربك ضربة اعلمك بها الادب» ، قال ذلك وهم باستلال السيف ، فلم يعد حسن يصبر على وقاحته فجرد هو سيفه وتلقاه

بضربة على عنقه ، فذهب رأسه يتدحرج على تلك الاحجار فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : كيف تتجرأ على قتل هذا الرجل بين أيدينا ؟ ..

فأجابهم حسن «أتعدون هذا رجلا ؟ .. قال ذلك وكان الشرر يتطاير من عينيه.. وظل واقفا وسيفه يقطر من دم قنبر ، ولكنه ما لبث ان رأى الفرسان يتشاورون ثم تقدم أحدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : «هذا جوادى فاركبه حتى تأتى المعسكر وشأنك والأمير.. وأنا أركب جملك» . فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبدالله ، فاستأنس به واطمأن باله، فركب الجواد وساروا جميعا نحو المعسكر ..

وكان السبب فى معرفة مكان حسن ، ان عرفجة بعث عبده قنبر للبحث عنه فى المعسكر ، فقضى طوال الليل فى البحث ، وفى الصباح رأى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية ذلك المكان الخرب ، فانتبه لذلك المخبأ .. فخرج خلسة ، فرأى حسنا وجمله على حين ان حسنا لم ينتبه له فأسرع الى سيده وأخبره بما رأى ، فأوعز عرفجة الى الحجاج بأنه ظفر بالجاسوس ، وأنه يحتاج الى كوكبة من الفرسان ليقبض عليه فأذن له بذلك ..

وكان عبدالله قد عاد الى موقفه مع الحرس ، فلما سمع الامر احتال فى مرافقة الفرسان لعله يستطيع مساعدة سيده فى شىء ...

وقد كان يخشى أن يصيبه سوء . فبذل جهده حتى ابقى عليه برغم ما ارتكبه من قتل قنبر ، وكان قنبر ذا منزلة رفيعة عند الحجاج ولكن الجند لم يكونوا يحبونه لفرط استبداده ووقاحته ، فلما قتله حسن فرحوا فى قراره انفسهم ولكنهم أظهروا الغضب .

وبعد أن ارسل عرفجة الفرسان ودخل على الحجاج فى خيمته، فأقنع الحجاج انه جاسوس وأهون شىء ان يقتله ويريح البلاد منه ، والحجاج لا يحتاج فى القتل الى توصية او تحريض لنهمه الى سفك الدماء.

وآن وقت الغداء ، ولكن الحجاج لم يشأ الخروج قبل مجىء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس المهول، على مابالغ عرفجة فى وصفه . فلما جاع لم يعد يصبر عن الطعام فجاءوه بالمائدة .. وكان الحجاج يعد من الأكلة المشهورين فى الإسلام حتى قالوا إنه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سمكة فى أكله واحدة ، فجاءوه بالطعام ودعا من فى مجلسه للأكل معه فاعتذروا .. ليس عن شبع ولكنهم امتنعوا تهيبا الا عرفجة فانه اكل معه . فلما فرغ الحجاج من الطعام ، رفعوا المائدة وجلسوا والحجاج يمسح لحيته بيده ولا يتكلم.. وكان شديد الهيبة حسن الفراسة ، فإذا سكت لبث الذين فى حضرته سكوتا..

المحاكمة

وبينما هم جلوس على تلك الحال ، اذ دخل حارس وهو يقول: «عاد الفرسان» .

فقال الحجاج :«ألم تر الأسير معهم ؟»

قال الحارس : «لم أر أحدا ماشيا» ..

قال الحجاج : «اخرج وتفرس لعله جاءنا على جواد» ..

فخرج الحارس ثم عاد وهو يقول : أظنه جاء راكبا لأنى رأيت معهم رجلا بلباس غريب» ..

فقال الحجاج : «أدخلوا الرجل لنراه» ..

فادخلوه عليه وقد نزع سيفه، ووقف حارسان من كل جانب فى يد كل منهما حربة، وفيهم عبدالله . وأما حسن فإنه وقف بقدم ثابتة كأنه بين يدى بعض الاصدقاء.

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشده وطأته ورغبته فى سفك الدماء، فعمد الى الصبر والثبات حتى الموت .. فظل واقفا برهة ولم يخاطبه أحد فى شىء ، والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ، ثم قال له : «ممن أنت ؟» ..

قال حسن : إنى لست من قبيلة الأمير .. ولا من قبيله أمير المؤمنين ، ومهما كنت بعد ذلك فأنا غريب .. وللأمير رأيه فىَّ» ، فتصدى عرفجة لخطابه، ولم يصبر على الحجاج ريثما يتكلم ، وقال : «أبمثل هذا الجواب يخاطب ولىّ أمير المؤمنين .. انها وقاحة» ..

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة ، فالتفت اليه وقال : «بل الوقاحة أن يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ، ويقطع عليه الكلام» ..

فاراد عرفجة ان يتكلم ، فرأى الغضب فى وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، فقال الحجاج : «لسنا فى مقام جدال ، فاخبرنى ما الذى جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟» ..

فتحير حسن فى الجواب وخشى أن يصرح بحقيقة غرضه فيهيج غيرته عليه ولا سبيل بعد ذلك للنجاة ... فلبث ساكتا ، فاستبطأ الحجاج جوابه، فاعاد السؤال فقال حسن : «جئت لأمر يهمنى ولا يهم سواى، ول علاقة له بالحرب او بالسلم» ..

قال الحجاج : «نرى اجوبتك مبهمة فأفصح» ..

فلبث حسن ساكتا ، فاغتنم عرفجة سكوته وخاطب الحجاج قائلا : «ان اجوبته مبهمة لأنه يخاف ان يعترف بفعلته .. انه جاسوس من عبدالله بن الزبير على مولانا الأمير .. بل هو عدو امير المؤمنين ، ويتمنى سقوطه ويسعى فى ذلك جهده . وإذا رأيته ينكر ذلك ، فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين» ..

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيما قاله عرفجة ، فقال حسن : «حاشا لله أن أكون كما يقول » ..

فقال الحجاج : «اذا كان الأمر كذلك ، فالعن الكاذبين على بن طالب ، وعبدالله بن الزبير، والمختار بن أبى عبيد» .

فارتبك حسن فى امره لأنه لا يعتقد كذب هؤلاء ، ولا يريد ان يلعنهم وخصوصا على بن ابى طالب . واذا لم يلعنهم فسيتخذ عرفجة ذلك حجة عليه ، فقال : «لا أرى علاقة بين صدق نيتى فى خدمة امير المؤمنين عبدالملك وبين لعن هؤلاء» ..

★★★

فصاح عرفجة للحال : « أرأيت يا مولاى ، انه خائن غادر يكذب على الأمير كذبا صريحا! .. أما قلت لك انه جاسوس ، والجاسوس يستوجب القتل ، فاقتله يا مولاى وارح نفسك منه» ..

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة .. ونظر فأدرك ان امتناع حسن عن اللعن لايدل على جاسوسيته ، ولكنه اعاد السؤال عليه وقال : «لقد صبرنا عليك حتى حيرتنا جرأتك .. سألناك عن نسبك فلم تجبنا ، وهذا ذنب يكفى وحده لاتهامك ثم سألناك عن غرضك من مجيئك الى هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ،

وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت ، فهل تتوقع بعد ذلك عفونا عنك ؟» ...

فلما سمع حسن كلام الحجاج تحقق من الخطر المحدق به ، وخشى أن تنفذ حيلة عرفجة فيه .. فلبث ساكتا وهو يفكر فيما يفعل ، فاغتنم عرفجة هذه الفرصة الثانية وخاطبه قائلا : «.. اجب الأمير .. قل ، ألست جاسوسا؟ .. جئت يا خائن لتدبر المكايد على أمـيـر المؤمنين ، ثم تدعى انك من أهل النزاهة وتتظاهر بالصدق» ، ثم التفت الى الحجاج وقال : «انى اعجب لصبر مولاى على وقاحة هذا الخائن ، وكيف لم يأمر بقطع رأسه.. » .

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته ، وخشى أن تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، عول على الايقاع بعرفجة ، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور قائلا : «هل تدعونى خائنا . وما الخائن إلا أنت ؟» ..

فوثب عرفجة من مجلسه وأظهر الغضب وقال : « كيف تتجاسر على هذه الوقاحة فى حضره الأمير ، وهو اعلم الناس بصدق طاعتى واخلاصى . والله لو أذن لى الأمير لقطعت رأسك بيدى .. لأنى اعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها ايضا غلامى قنبر، ثم صاح : «قنبر» فلم يجبه احد ، فكرر النداء فأجابه حسن : «لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه .. » فالتفت عرفجة الى الحرس وأمارات الاستفهام فى وجهه ، وقبل أن يسألهم أشار احدهم بيده : «أن حسنا قتله » فأجفل عرفجة وحملق عينيه، وصاح فيه : «قتلك غلامى وأنت واقف لا تخشى قصاص الأمير.. ؟!» ..

ثم التفت الى الحجاج وقال : «أتراه لم يستوجب القتل بعد وهو قاتل عمدا ؟» ..

فابتدره حسن قائلا : «قتلته لخيانته وسوف يصيبك نصيبه بأمر مولانا متى ثبتت خيانتك» ..

فقال عرفجة : «أتتهمنى بالخيانة ، وخيانتك ظاهرة للعيان ، وقد أضفت إليها جريمة القتل ؟ !» ..

★★★

أما حسن ، فلما رأى الحجاج مصغيا .. التفت الى من حوله من الأمراء وقال : «أشهدكم على أن دم الخائن مهدور أيا كان ..» ..

فقال عرفجة : «ما الخائن إلا أنت ؟ !» ..

فعند ذلك تجلد حسن حتى ملك نفسه ، ونظر الى عرفجة قال له بصوت هادىء: « من الخائن منا يا عرفجة ؟..» ..

قال عرفجة : «أنت ..» ..

قال حسن .. «أنا الخائن ، وأنت الأمين الصادق فى خدمة أمير المؤمنين ؟!» ...

قال عرفجة : «وهل من شك فى ذلك ؟» ..

قال حسن : «وما قولك فى الكرسى ؟» .

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسى ارتعدت فرائصه وبدت البغتة فى عينيه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة وقال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف : «كرسى؟ .. اسمعوا ماذا يقول ؟ .. لا شك انه يهذى ..» ..

فقال حسن : «ألم تفهم أى كرسى ؟ .. كرسى المختار بن أبى عبيد الذى زعمت أنه لعلى بن أبى طالب» .

قال عرفجة : «وما شأنه ، وما علاقة المختار بما تقول ؟ ..» .

قال حسن وقد رفع صوته : «ألا تعرف علاقته بك ؟ .. اذا كنت لا تعرف تلك العلاقة فاسأل محمد بن الحنفية عنها والرجل قريب من هذا المكان . اسأله او اسأل من شئت .. وإذا انكرت استجوبنا رماد الكرسى.. هل يكفى ذلك ؟ ..» ..

التخلص

ثم أشار إلى عرفجة وقال : «إن هذا النزيه الصادق لما تقدم الى محمد بن الحنفية يطلب اليه ان يأذن له بالدعوة باسمه وخلع طاعة أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان .. » .

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج كل من بالخيمة ورجح الحجاج صدق كلام حسن، لأنه كان مع تقريب عرفجة منه لا يجهل خبثه ونفاقه وإنما كان يقربه منه لأنه يحتاج الى أمثاله لبعض الاغراض. فلما بدا له صدق هذه التهمة الفظيعة صمم على قتله ، ولكنه اجل ذلك ليرى مايكون.

أما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة ، فقال وهو يظهر التعقل والهدوء: «يظهر لى أن مولاى الأمير سكت عما سمعه من هذا الرجل ، كأنه مال الى تصديقه..» .

فقال الحجاج : «وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقا ؟ » ..

قال عرفجة : «نعم يا مولاى» ...

قال الحجاج : «لا يعقل ان يفعل ذلك ويستشهد بأناس

معروفين .. وهب انه اختلق ذلك ، فما الذى يدعوه الى هذا الاختلاق .؟ » .

فضحك عرفجة ثم اظهر الاهتمام ، وقال : «يدعوه الى ذلك أمر أفظع من هذه الخيانة ، لو ذكرته لك لم تصبر عن صلبه ..» ..

فقال الحجاج : «وما ذلك ؟ » ...

قال عرفجة : «إننى اضن بعرض الأمير أن يذكر فى مثل هذا المقام ، فإذا اذن مولاى بخلوة ذكرت له السبب، وأنا ضامن أنه يقتنع ويرى براءتى .. » .

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده ، فخرج كل من فى الخيمة من الامراء والحراس وفى جملتهم حسن ، وبقى الحجاج وعرفجة فقط ، فلما خرج حسن رأى فى وجوه الامراء استحسانا لما سمعوه منه ، وكلهم ناقمون على عرفجة لفظاظته .

فلما خلوا اخذ عرفجة يقص عليه حديث حسن مع سمية ، وأنه ، اى عرفجة، نظرا لما آنسه فى ابنته من الجمال والحكمة أرادها للحجاج منذ بضعة اعوام، وكان يبذل ما فى وسعه لتهيئتها لخدمته . فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه، وهى فتاة لا تدرك امور الدنيا .. فانخدعت بظاهره حتى أنه اراد ان يختطفها ويفر بها ، وكادت تفر معه لو لم يطلع هو على هذه الدسيسة ، فسعى الى قتله بمساعدة طارق بن عمرو والى المدينة .. الى أن قال :

«وهذا طارق بين يدى مولاى، اسأله وهو ينبئك بصدق قولى .. ولما علم بأن سمية زفت الى الأمير جاء متنكرا ليخدعها مرة ثانية ويغريها ، فرأيته الساعة مجيئة مع ليلى

بالأمس وبعثت من يتعقبه فلم يجدوه ، ولكننى علمت أنه سار إلى جهة خيمة النساء وقد شق على أن أصرح بذلك لمولاى الأمير لئلا أغضبه ، فقلت إن الرجل جاسوس وهو فى الحقيقة لا يخلو من الجاسوسية لأنه هو صاحب الكتاب الذى جاء به ذلك الثقفى ، وكنت ظننته قد قتل صاحبه فإذا هو قد قتل رجلا آخر . وخلاصة الأمر أن الرجل علم أننا اطلعنا على أمره ففر إلى الخرائب المجاورة حتى كشف لنا سره عبدى قنبر (رحمه الله) فأرسلنا معه الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قولى أنك لما سألته عن غرضه من المجئ إلى هنا لم يستطع جوابا ..»

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا ، ولكنه رأى التهمة الموجهة إليه معقولة أيضا .. فلم ير خيرا من الصبر حتى ينجلى له الحق ، وعزم فى قرارة نفسه على أن يقتل الاثنين .. فأمر بسجن حسن ، ومتى احتاج إليه فى تحقيق التهمة على عرفجة استحضره . وتظاهر لعرفجة أنه اقتنع بسوء قصد حسن .

ذهب حسن إلى محبسه فى خيمة أفردوها له فى طرف المعسكر، وببابها حارسان معهما الحراب .. ولما وصل إليها رآهم قد أعدوا له الأغلال ، فأغلوا رجليه وشدوا وثاقه ، فعظم ذلك عليه وأيقن بقرب الخطر .

وفيما هو ممدد على حصير من سعف النخيل ، سمع وقع أقدام خفيفة فى الخيمة فانتبه ، فسمع صوتا يناديه : «لا تخف يا مولاى .. إنى خادمك عبدالله» .

فحاول حسن الجلوس ، فساعده عبدالله . وعندما جلس قال له: «ما وراءك ؟ ..»

قال عبدالله : «ما ورائى إلا الخير إن شاء الله» .

ثم قال : «احتلت على الحارسين حتى استبدلت أحدهما بنفسى لما لى من النفوذ لأنى من حرس الحجاج ، ولبثت خارجا حتى أتت نوبتى فى السهر عليك ، ونام رفيقى فدخلت لأسألك عما تريد ..»

قال حسن : «لا أريد شيئا .. ان الفرار بنفسى لا أبغيه ، ولو عرض على ما قبلته» ..

فقال عبدالله : «وما الحيلة يا مولاى إذا وقع الحر بين أيدى الظالمين الطغاة وقد تفوقوا عليه بعددهم وقواتهم ؟ .. أيسلم نفسه لهم أم يستحل الخروج من بينهم بأية وسيلة كانت ؟ ..» .

قال حسن : «أتريد أن أفر من هذا المعسكر وحدى ، وأترك سمية فى بيت الحجاج ..؟»

فابتدره عبدالله قائلا : «كلا يا مولاى ، لا أعنى أن تخرج وحدك ، بل أعنى البحث عن وسيلة تخرجان بها أنت وسمية معا ..» .

فظل حسن ساكتا ، سكوته دليل على القبول .. فاستأنف عبدالله الكلام فقال : «سأذهب غدا إلى خيمة النساء أستطلع الخبر ، أما الآن فأقلع عما أنت فيه من يأس، وتناول طعامك حتى يأتى الله بالفرج القريب ..» ثم ودعه وخرج .

وكانت سمية قد واعدت عبدالله على الخروج معه فى مساء الأمس ، ثم سمعت بالقبض على حسن والرجوع به إلى المعسكر ، ثم بلغها أنه سجن . وما لبثت أن رأت الجند قد أحدقوا بمقرها ومعهم السلاح ، فأيقنت أن الحجاج اطلع على سر الأمر ، وعلم الغرض من مجيء حسن إلى معسكره ، فتحققت أنها وقعت فى خطر الموت . ولم تر فرجا إلا فى مخاطبة أمة الله ، فاستدعتها إليها وكانت هى التى أخبرتها بسجنه، فقالت لها سمية : «ما رأيك فى هذا الجند المحدق بنا كما يحدقون بالقتلة ومرتكبى الجرائم الكبرى ؟»

قالت أمة الله : «وما الذى يفعلونه ؟ ..»

قالت سمية : «تسألينني عما يفعلونه .. وقد سجنونى وسجنوه ، ولاشك أن ذلك العاتى قد أطلع على ما بينى وبين حسن .. فما الذى نرجوه منه غير الفتك بنا ؟!»

ثم قالت : «.. أين السم الذى احتفظت به لى ؟ .. لقد حان وقته ..»

قالت أمة الله : «لا أظن وقته قد حان يا مولاتى ، وحسن لا يزال على قيد الحياة .. ومن يدرى ما يأتى به الغد ؟ ..»

فاحتارت أمة الله فيما تعزيها به وهى واثقة من قرب مقتل حسن ، ولن تلوم سيدتها إذا هى انتحرت ، فظلت ساكتة ،

واستأنفت سمية الكلام ، فقالت : «أين السم ؟ .. اعطينى إياه ..»

فتغير وجه أمة الله وتناثرت الدموع من عينيها ، وقالت : «دعى السم ، فإن وقته لم يأت بعد ..»

قالت سمية : «اعطينى إياه .. وأعاهدك على أنى لن أتناوله إلا بعد أن أقطع الأمل من بقاء حبيبى» .

فقالت أمة الله : «أتعديننى أنك لا تتناولين السم إلا بعد أن يقع الخطر حقيقة ؟» ، عاهدتها على ذلك ، فخرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام .

وكان الحجاج قد أمر بإخراج سائر النساء من الخيام إلا سمية وخادمتها وأمر الحرس أن يحدقوا به ، فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخيمة لما يتحدث به أولئك . وسمعتهم يتحدثون بما أظهره حسن من الشهامة وعزة النفس ، وما ظهر فى كلام عرفجة من التلاعب والغدر .

أما عبدالله ، فلما جاء ليحدث سمية فى الفرار ، رأى الحرس محدقا بخيمتها .. فعاد ولم يرها وأخبر حسنا بما كان ، فزاد الأمر فى ناظريه تعقدا .

دعوة عاجلة

توقع حسن أن يكون بلال قد أتى إلى المعسكر يبحث عنه فسأل عبدالله عن ذلك فأخبره بأنه شاهد عبداً غريبا وربما يكون هو

فطلب حسن أن يحضره إليه فاحتال عبدالله حتى اصطحب بلال معه إلى حسن وسأله حسن عن خبره .

فقال بلال : «جئنا اليك فى مهمة عاجلة ، وأخشى أن يكون قد فات أوانها ..»

قال حسن : «وما هى ؟..»

قال بلال: «استدعانى ابن صفوان إلى منزل عبد الله بن الزبير فى مكة، وسألنى عنك فأخبرته أنك لم تعد بعد. فقال ان أمير المؤمنين (ابن الزبير) يحب أن يراك لأمر ذى بال خاطبته أنت بشأنه منذ بضعة وعشرين يوما، ويسر اليك بشئ لا يقدر أن يعهد به إلى سواك».

فأطرق حسن ، فتبين له ان ابن الزبير يريده لكلام يتعلق بأخته رملة وخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز من أجل هذا الأمر ، وقد عهد خالد بذلك اليه ، فرأى من الواجب عليه ان يجيب الدعوة حالا. فالتفت الى عبد الله وقال: «عرضت على منذ أيام الخروج من هذا المعسكر ، فهل فى إمكانك اليوم أن تطلق سراحى؟»..

قال عبدالله : «ذلك هين على فى أى وقت تشاء ، وإنى أفديك بروحى» .

قال حسن : «لا أبتغى الفرار ، وإنما أريد الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ، ثم أعود فى الصباح إلى السجن»

فأعجب عبدالله بعزة نفسه ، وقال له : «افعل ما بدا لك ، فإنى فاعل ما تريد» .

وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل ، فقال عبدالله : «تمهل قليلا فأعطيك ثوبى فتلبسه وتتزيا بزيى ، وأنا ألبس ثوبك وأمكث فى هذا السجن مكانك ريثما تعود ، وتخرج أنت كأنك من حرس الحجاج وتتظاهر بأنك ذاهب فى مهمة إلى ابن الزبير .. فلا يعترضك أحد .

فأدرك حسن أن عبدالله مستعد لبذل أية تضحية فى سبيل نجاته، فقال له : «بورك فيك من صديق صادق .. ولكننى أخشى أن أصاب بسوء فلا أعود ، فتقع أنت تحت طائلة العقاب» .

قال عبدالله «إذا أصابك سوء فلا أطمع أنا فى البقاء ، وفضلا عن ذلك فإن الناس سيبدأون فى الهجوم فى صباح الغد، ولا أظنهم ينتبهون ما حل بسجينهم ، ولا يطالبنى أحد بك ، وربما أطلقت نفسى من السجن ولا بأس على...» .

فقطع حسن كلامه قائلا : «أما الرجوع فلابد لى منه .. لابد لى من الاستماتة فى سبيل سمية» ، ثم قال : «لابد لى من السعى فى الانتقام من أبيها الخائن ..» ، ثم التفت إلى بلال ، وقال له : «هل تذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد فى فسطاط محمد بن الحنفية ؟» .

قال بلال : «أظنك تقصد حكاية عرفجة والكرسى ؟» .

قال حسن : «إياها أعنى ، هل تستطيع الحصول على كتاب من محمد المذكور – بخط يده – إلى الحجاج ، يشهد له فيه أن عرفجة جاء ومعه الكرسى ، وعرض نفسه ليطلب له البيعة من أهل العراق ليخلعوا بيعة عبدالملك بن مروان ؟» .

قال بلال : «ذلك على هين» .

قال حسن : «اذهب إذن إلى الشعب توا ، وأتنى بذلك الكتاب عاجلا . سر من أقرب الطرق واجعل رجوعك إلى هذا المعسكر ، لأنى سأذهب إلى مكة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود إلى أغلالى وأرى ما يأتى به القدر ..» .

فخرج بلال وسار فى مهمته .. ولما غربت الشمس دخل عبدالله على حسن ، فألبسه ثيابه وصرفه ، وجلس هو مكانه . فخرج حسن والتمس طريق مكة ، فأسرع ليبلغ مكة باكرا فينبئ عبدالله بعزم الحجاج لعله يجد سبيلا للدفاع .

مفاوضة

دخل حسن مكة ولم يعترضه أحد ، حتى أشرف على المسجد .. فوجد الناس قد تزاحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم أنهم يتوقعون شرا

فسار توا إلى منزل عبدالله بن الزبير، فرأى الناس يتزاحمون عند بابه، فسأل عن ابن صفوان فقيل له انه فى خلوة مع أمير المؤمنين.. فشق جموع الناس ودخل يلتمس الحجرة التى فيها عبدالله، فلقيه الخدم فسألوه عن شأنه ، فقال انه يريد أمير المؤمنين .. فخرج إليه ابن صفوان، فلما عرفه رحب به، ورأى حسن الانقباض على وجهه فقال له : «أين أمير المؤمنين ؟» .

قال ابن صفوان : «تركته يصلى الفجر» .

قال حسن : «جئت اليه عملا بإشارته» .

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان وأشار إلى حسن فتبعه، ودخل فرأى عبدالله واقفا فى الغرفة وقد لبس الدرع تحت جبة ، فأسرع حسن إلى تقبيل يده فأمسكه عبدالله عن ذلك ورحب به، وأشار إلى ابن صفوان فخرج فأقفل عبدالله الباب، ولم يبق فى الحجرة غيره وحسن. فاستغرب حسن اهتمامه وتكتمه، ولبث واقفا ينتظر ما يبدو منه وقد تأدب فى وقفته. فلما أغلق عبدالله الباب ، ثم التفت إلى حسن وقال له: «لا أظنك حصلت على كتاب من خالد...؟»

قال حسن : «كلا يا مولاى ، ان الرسول لم يعد بعد»

قال عبدالله : «ولا أظننى أراه»، وأطرق قليلاً ثم أضاف : «لا بأس إذا لم أره فانى على يقين من رغبة خالد فى أختى، فأرغب إليك اذا لقيته أن توصيه بأختى خيرا وتقول له : ان مصاهرته لآل

الزبير جاءت متأخرة، ولو عجل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الأمر».

فأدرك حسن أنه يئس من الفوز، فأراد أن يستطلع رأيه، هل عزم على التسليم أم على الحرب، فقال له : «لا أخفى على مولاى أن آل مروان وآل أبى سفيان قبلهم لم يخلص لهم الملك دون بنى هاشم وغيرهم إلا بما توخوه من الدهاء والسياسة، وما بذلوه من المال لدعاتهم وأنصارهم» ، فلما ذكر المال بدا فى وجه عبدالله الانقباض وقال : «لاتذكرنى بالمال وأمره، فقد كنت شحيحا به لأنه مال بيت الله. ولعلى لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالأمر دونى. ولكنى لا ألتمس الدنيا .. ومع ذلك فقد قضى الأمر.. لقد بعثت إليك لأوصيك بأختى خيرا، فأوص بها خالدا عنى وقل له عن لسانى: «دع أمر الخلافة من ذهنك، فإنها شاقة على أهل الدين فى هذا الزمان.. واشتغل بما أنت بسبيله من العلم والكيمياء» ثم قام من مكانه وأشار لحسن قائلاً : «تعال معى إلى أمى لأخبرها بما تم عليه الأمر بشأن رملة» .

قدوة الأمهات

فمشى حسن فى أثره وقد لاح الفجر، فدخلا حجرة رأى حسن فى صدرها امرأة عجوزا عرف انها أسماء ذات النطاقين والدة عبدالله، وهى بنت أبى بكر الصديق وأخت عائشة زوج النبى وقد كف بصرها وبدا الهرم فى وجهها، فأقبل عبدالله اليها وحياها وهم بيدها فقبلها فقبلته ثم قالت : «ما وراءك يا بنى».

قال عبدالله : «فقد جئتك بحسن وكنت ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لطلب أختى رملة.. فاستقدمته وأخبرته بما رضيت به من هذا الأمر، وأنا أعلم ان خالدا يستحقها فإذا جاءك ولم أكن على قيد الحياة فهو ينوب عنى فى ذلك» .

فرفعت رأسها وهى تجيل عينيها المظلمتين كأنها تحاول أن تنظر إلى ابنها ، ولكنها لم تكن ترى غير الظلام. ونظر حسن إلى وجهها ، فرأى دمعتين تقطرتا من جانبى أنفها بغير أن يبدو للبكاء أثر فى وجهها.

فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها. ثم سمعها تقول : «سأفعل كما تقول» ، وسكتت وكأن فى نفسها شيئا تكتمه، ثم قالت: «فى أية ساعة من الليل نحن؟»

قال عبدالله : «نحن فى الصباح» وما أتم كلامه حتى سمعوا وقع حجارة المنجنيق على الكعبة أكثر مما يعهدونه من قبل. فتحقق حسن هجوم أهل الشام وأيقن بوقوع الخطر العظيم، فنظر إلى عبدالله فإذا هو قد تغيرت سحنته وقد التفت إلى أمه، وقال :« والآن يا أماه، لقد ألح أعداؤنا بالمجانيق، وقد علمت انهم سيهجمون علينا هجوما نهائيا ليس بعده هجوم ، فإما أن نظفر أو يظفروا ، وقد آليت أن أفعل أمرا أستشيرك فيه .. فبماذا تشيرين ؟»

فنظر حسن إلى أسماء وتفرس فى وجهها .. فاذا هى لاتزال تجيل بعينيها وقد أسرعت حركتهما كأنها تتلهف لرؤية ابنها، وليس فى عينيها أثر للدمع، وقالت وشفتاها ترجفان من الشيخوخة

لا من الخوف: «انت أعلم بنفسك يا بنى.. فإن كنت تعلم أنك على حق فامض، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية . وان كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وان قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين.. فلم بقاؤك فى الدنيا؟ .. القتل أحسن !».

فقال عبدالله : «يا أماه . أخاف ان قتلنى أهل الشام ان يمثلوا بى ويصلبونى» .

قالت : «يا بنى ان الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله» .

فقبل رأسها ، وقال : «هذا رأيى ولكننى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة . فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا، فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله . فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر، ولم يتعهد ظلم مسلم ، ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى، ولكننى أقوله تعزية لأمى حتى تسلو عنى» .

فقالت وقد بان الجد فى جبينها: «أرجو أن يكون عزائى فيك جميلا.. اخرج حتى انظر ما يصير إليه أمرك» .

فقال عبدالله : «جزاك الله خيرا..» .

ثم تحول عبدالله ليودع أخته رملة فى الحجرة الثانية، وظل حسن واقفا فى انتظار عودته..ثم عاد عبدالله اليها، وهم بتقبيل يدها ، فقالت له : «هذا وداع »...

فقال عبدالله : «جئت مودعا لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا»..

فلما سمع حسن قوله اقشعر بدنه، ونظر إلى وجه أسماء.. فاذا هو لم يتغير.. فرأى من ثباتها فوق ما كان يسمعه عنها، وعكس ما كان يتوقعه من والدة فى مثل هذه الحال، ثم ما لبث أن سمعها تقول له : « ادن منى حتى أودعك» فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها بخصره وقبلته ، فوقعت يدها على الدرع فنفرت وصاحت فيه: «ما هذا ؟!» ، فبدا الخجل على وجهه ، فقالت: « .. البس ثيابك مشمرة» فمد يده إلى الدرع ونزعها، وشد أسفل قميصه وجبته تحت ثنيات السراويل، وخرج ، فخرج حسن وقد أدرك ان عبدالله انما خرج يستقبل الموت..

مقتل ابن الزبير

خرج حسن فى أثره، وقد ثارت الحمية فى رأسه وعزم على الحرب معه، فشعر عبدالله بذلك فالتفت اليه وقال : «استحلفك بالله وبالرسول ألا تعرض نفسك للقتال من أجلنا، اذا ليس لك شيء فى هذا الأمر».

فشق ذلك على حسن لأنه لم يكن يصبر على رؤية القتال ثم لايقاتل، وهو مع ذلك على يقين من فوز جند بنى أمية لكثرتهم واتحادهم.. ولكنه ظل سائرا فى أثر عبدالله حتى خرج من المنزل، فرأى الناس ينتظرونه وفيهم بقية أهله وقد تدرعوا وتسلحوا وتهيأوا للقتال.

وأما حسن فاختار فى أمره بعد أن استحلفه عبدالله ألا يقاتل، وخاف من ناحية أخرى أن يراه الحجاج أو بعض رجاله يقاتل، فيثبت عندهم انه عدو.. فلا تفلح معهم حيلة بعد ذلك فى الحصول على سمية وبخاصة اذا عادوا بعد تلك المعركة ظافرين. فاختار الدخول إلى المسجد والوقوف فى بعض الأطراف ريثما تنقضى الوقعة .. فصبر حتى مر رجال عبدالله نحو الحجون، ثم التفت فرأى أعلام بنى أمية قد ملأت مكة وهم كثيرون، فأسرع إلى المسجد الحرام.. فلم يستطع الدخول لأن الحجاج كان قد وضع أناسا على بابه يمنعون الناس من الدخول، فأسرع إلى المنزل بجوار المسجد ودخله، وأطل من ثغره فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الأسود مرة فى هذه الناحية، ومرة فى تلك كأنه أسد ، وابن صفوان بجانبه يدافع عنه، فرأى الحجاج قد ترجل وأقبل يسوق الناس لمقاتلة ابن الزبير لأنه رآهم لايقوون على الوقوف بين يديه، وأسرع بجماعة من رجاله إلى حامل علم الزبير، وكان واقفا بباب من أبواب المسجد ، فجاء ابن الزبير لحماية العلم وقد دخلوا المسجد وصار القتال فيه.. فمضى ابن الزبير ليصلى بجانب المقام، فاغتنم الحجاج ورجاله فرصة صلاته وهاجموا صاحب العلم فقتلوه وأخذوا العلم، فتفرق الرجال وعاد ابن الزبير للقتال بلا فائدة، وقاتل حتى قتل هو وابن صفوان وغيرهما، ثم رأى حسن رجلا أسرع إلى جثة عبدالله وحز رأسه .

وحمله إلى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الرأس أمر أن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان إلى المدينة ، وأن تصلب جثة الأول فصلبوها أياما .

أما حسن ، فلما رأى ما حل بقوم ابن الزبير وثبت له انتصار بنى أمية وسمية عندهم ، رأى أن يعود إلى معسكر الحجاج لعله يغتنم فرصة غياب الجند فينجو بها وإلا فإنه يعود إلى سجنه ..

فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس ، فلما دخل المعسكر لم ير فيه إلا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خيمة النساء..

ولما وصل حسن إلى الخيمة ، أبطأ خطاه ريثما يتنسم الأخبار ويستطلع الأحوال وفيما هو يدور خرجت أمة الله ولم يكن يعرفها، ولكنه كان يعرف أنها عندها فاشتبه فيها . أما هى فكانت قد رأته فى دار عرفجة بالمدينة ، فدنت منه وقالت : «حسن ..؟» ...

قال : «نعم .. حسن ، أين مولاتك ؟».

قالت أمة الله : «هى فى هذا الخباء فى حالة يرثى لها ..».

فقال : «أدخلى وانبئيها بمجيئى للفرار معا ، فلتتشدد ولنخرج حالا ..» .

فهرعت أمه الله ، ولم يصبر حسن إلا قليلا حتى دخل فى أثرها ، فوجد سمية جالسة وهى تفرك عينيها بأناملها وتنظر إلى أمة الله وتقول : «أصحيح ما تقولين ؟ .. حسن هنا ! .. حسن جاء ؟ أم أنا فى حلم ؟ ..» .

فلما وقع بصره عليها ، رآها قد تغيرت من الضعف وقد امتقع لونها . ولما سمعها تسأل أمة الله أجابها هو : «لا ، بل أنت فى يقظة يا حبيبتى ، أنت فى يقظة .. أنا حسن جئت لإنقاذك ، هلم بنا حتى نبتعد عن هذا المعسكر .. هلم بنا حالا .. إن الوقت قصير والخطر قريب ...» .

فوقفت وركبتاها تصطكان ، وقالت «ما أحسن هذا اللقاء ! .. هلم بنا » .

وكانت امة الله تشتغل بحمل بعض الطعام ، فسمعت وقع حوافر الخيل عن بعد فأسرعت إليهما وهى تقول : «لقد جاء الفرسان» ..

فلما سمعت سمية ذلك التفت إلى حسن ، وقالت وصوتها يرتجف : «حسن .. حسن .. لا تخرج ، وإذا كانوا قد جاءوا لأذيتك فلنمت معا» .

فثارت الحمية فى حسن ، فقال لها : «لا عاش من يمسك بسوء وأنا حى» .

ولم يتكلم فرجح لدى حسن أن مجيئهم لا لشبهة أو تهمة جديدة ، وإنما عادوا ليحرسوا الخيمة كما كانوا بالأمس ، فسكن روعه وروع سمية .

رسول فى الهواء

ولكنهما ما لبثا ، وهما فى ذلك الهدوء ، أن سمعا طنين سهم مرسل فى الفضاء وكأنه أصاب عمود الخيمة من الخارج . وكانت

أمة الله مشغولة ببعض الشئون ، فلما سمعت وقع السهم خرجت. فمدت يدها إلى السهم وأخرجته من العمود ، ودخلت به إلى حسن فتناوله .. فإذا به ورق ملفوف ، فدنا من المصباح فإذا بالورقة كتابة بخط عبد الله خادمه فقرأها ، ونصها : «اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما ، وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا .. والله مع الصابرين» .

فلما قرأ حسن البطاقة أيقن بوقوع الأمر الخطير ، ولم ير بدا من تهيئة أسباب الاطمئنان لسمية ، فابتدرها قائلاً : «لابد لى من الذهاب إلى الحجاج بنفسى لأننى لا أظنه أرسل الناس فى أثرى إلا لزعمه أننى فررت من سجنى بالأمس والحقيقة أنى لم أفر ، ومهما يكن من الأمر فلا بد من مواجهة الحجاج والاطلاع على ما يكون ...» .

فقطعت سمية كلامه قائلة : «أتذهب إلى الحجاج وأنت لا تدرى ماذا يكون منه ؟ .. أعوذ بالله من شر هذا الرجل .. ماذا يكون منه غير القتل ، والعياذ بالله .. وبخاصة لك أنت وقد علم أنك عندى .. ويلاه .. كل ذلك بسببى .. يا ليتنى مت منذ أعوام، ولم أكن سببا لهذا الأذى .. دعنى أذهب عوضا عنك ليقتلنى ، فأذهب فداء عنك لأنى مقتولة على أى حال ..» .

فوضع يده على كتفها وكلاهما يرتجفان ، وقال : «لا أرى الأمر يقتضى كل ذلك، ولن تكون أنت السبب فى قتلى إذا

قتلت ... ولكننى أطمع إذا قدر لى الموت أن تذكرى حسنا ، وأنه كان يحبك ويهواك» .

قال ذلك واختنق صوته .

وقال : «استودعك الله يا سمية ، وموعدنا الغد إن شاء الله» قال ذلك وخرج . فلما صار خارج الخباء ، صاح بأعلى صوته : «أين هو عريف هذه الكوكبة ؟» .

فتقدم إليه فارس منهم ، وقال : «وماذا تريد منه ؟ ..» .

قال حسن : «أريد أن يهدينى إلى فسطاط الأمير لأنى ذاهب إليه ..» .

فقال الفارس : «لم يأذن لنا الأمير بالرجوع إليه ، وإنما أمرنا أن نحرس هذا الخيمة بمن فيه حتى يأتى هو ، ولعله آت الساعة» فأدرك حسن أن ذلك تدبير عرفجة لأنه يريد أن يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته ويسرع فى قتله ، فعول حسن على أن يضيع عليه تلك الفرصة فقال : «ولكننى فى حاجة كبرى إلى رؤية الأمير الساعة ..» .

قال الفارس : «لا يمكنك الخروج من هذا المكان » .

قال حسن : «لابد من خروجى» .

وإذا بفارس مقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآهم الحراس تهامسوا فيما بينهم وترجلوا ، ففهم حسن أن القادمين هم الحجاج وحاشيته ، فظل فى مكانه ينتظر ما يكون .

وكان الحجاج لا يزال بلباسه الذى حارب به ابن الزبير ، فقال للفرسان : «ماذا تفعلون هنا ؟» .

فتقدم عريفهم وقال : «نحرس هذه الخيمة لنمنع من فيه من الخروج» .

قال الحجاج : «ومن أمركم بذلك ؟ ..» .

قال العريف : «أمرنا به عرفجة عن أمر مولانا الأمير» .

فأطرق الحجاج وقد أدرك أن عرفجة لا يهتم إلا بحسن ، وكل منهما يريد الايقاع بالآخر . ولم يكن الحجاج يعلم بمجئ حسن إلى خيمة سمية ولا بما أمر به عرفجة ، وإنما جاء إلى خيمة نسائه تلك الليلة لأنه تحلل من يمينه بمقتل ابن الزبير فى ذلك النهار ، فلما علم بما فعله عرفجة سأله الحارس عما وجد ، فقال وهو يشير إلى حسن : «وجدنا هذا الرجل خارجا من الخيمة يريد الذهاب إلى مولانا» .

فنظر الحجاج إلى حسن فعرفه ، فتحققت عنده تهمة عرفجة له بمجيئه إلى سمية ، وعظم عليه أن يراه خارجا من خيمة نسائه ، وهم أن يأمر بقتله حالا .. ولكنه تذكر التهمة التى وجهها إلى عرفجة فرأى أن يصبر عليه إلى الغد ، وبعد أن يثبت التهمة على عرفجة يقتلهما جميعا .

فقال : «خذوه إلى السجن .. وموعدنا الغد» .

فسر حسن لذلك التأجيل ، ولكنه مشى مع الحراس وهو يلتفت إلى الوراء ليتحقق من ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية .

المحاكمة

وفى الصباح الباكر ساقو حسن إلى فسطاط الأمير ، وقد أمر الحجاج ألا يحضر المجلس أحد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف فى وسط الفسطاط ، وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكأن حسنا هو المجرم ، وكان الحجاج إذا نظر إلى حسن كان يتميز غيظا ، ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة ، فقال له : «عهدناك فى الأمس مسجونا ، فما الذى أخرجك من السجن؟» .

قال حسن : «خرجت مه لأمر ضرورى ثم عدت ، ولو كنت أقصد الفرار ما رجعت» .

فقطع عرفجة كلامه وهو يضحك : «ذهبت لأمر ضرورى .. أما ذهبت إلى عدونا وكنت فى منزلة طوال ليلة أمس ، وتقول إنك رجعت .. ولكن إلى أين ؟ .. إلى السجن أم إلى الخيمة » .

فالتفت الحجاج إلى عرفجة لفتة ظهر فيها الغضب ، وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج ، والذى التفت إلى حسن وقال : «لا يهمنا السبب الذى خرجت من أجله إلى ابن الزبير ، فإنك متهم عندنا على أى حال . وأما سبب دخولك خيمة نسائنا فسنبحثه ولكنك اتهمت صديقنا عرفجة بالأمس فهل تستطيع إثبات تلك التهمة ؟» ، فقال حسن : «أما كونه خائنا لدولة بنى أمية فأمر لا شك فيه ، وقد رأيته بعينى رأسى واقفا بين يدى محمد بن الحنفية فى الشعب ومعه الكرسى الذى كان المختار بن أبى عبيد يسميه كرسى على ويدعو الناس إلى بيعة ابن الحنفية به ، وسمعته يحرض

محمدا على إمداده بالمال للخروج على بنى أمية فى العراق ، ويدعو الناس إلى بيعته ، لأنه فى زعمه أولى من بنى أمية بهذا الأمر .. ذلك كله رأيته بعينى وسمعته بأذنى ..» .

فقال الحجاج : «ثم ماذا ؟» .

قال حسن : «أما ابن الحنفية فإنه استخفف بطلبه ، وردعه عن القيام بهذا الأمر لأن وقته قد فات ، ثم أمر بالكرسى فأحرق بين يديه ، وأخرج هذا الرجل مهانا» .

فلما تبين عرفجة صراحة كلام حسن حتى كاد الحجاج أن يصدقه ، لم ير سبيلا إلى دفع تلك التهمة إلا بالخداع والمغالطة، فوقف ووجه خطابه إلى الحجاج قائلا : «إذا كان لكلام هذا الغلام تأثير فى أذن مولاى فليأمر بقتلى حالا ، لأن ظل هذه الشبهة يستوجب القتل .. فكيف بما يقول هذا المنافق ؟ . أنه أمر مستحيل ، ولكنه هول من التهمة ليخفف بها ذنبه الذى لم يرتكبه أحد قبله ..» .

فقال حسن : «أما ذنبى فلا أنكره ، وسأبسطه لمولاى .. وله بعد ذلك ما يشاء .. وأما أنت ؟» .

فالتفت الحجاج إلى حسن وقال : «لا تصح دعوى بلا بينة .. فما هى البينة على ما تقول ؟» .

قال حسن : «وأية بينة ترجو أن تقوم على ذلك ، وقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا .. ولم يكن معهما ثالث ؟» .

فصاح عرفجة : «اسمع يا مولاى تقلب هذا المنافق وتناقض أقواله ، فإذا كان هذا الأمر قد حدث سرا فى خيمة مقفلة .. فما الذى أطلعه هو على ذلك السر ؟» ..

فدخل الحجاج شك فى قول حسن ، فقال : «صدق عرفجة .. زعمت أنك عرفت ما دار بينهما وسردته كأنك سمعته من

شفاههما ، وقلت إنك رأيت وسمعت .. فكيف ذلك ؟ .. فإذا كنت إنما تقول جزافا ، فاقتصر ولا تطل أجلك ساعة أخرى» .

فلما رأى حسن اندفاع الحجاج بكلام عرفجة تجلد وأظهر التعقل وقال : «نعم .. كان الكلام فى خيمة مقفلة .. ولكننى سمعت ورأيت خلسة ..» .

فقال عرفجة : «أنت تقول أنك سمعت ورأيت ، وقد بدا من تلون أقوالك ونفاقك أنك لم تسمع ولم تر .. وأنا لا أقبل غير شهادة محمد بن الحنفية نفسه» .

فقال الحجاج : «إنه طلب عادل» .

ثم تذكر حسن أنه أرسل بلالا فى تلك المهمة ، ولا يدرى إذا كان يتأتى له النجاح فيها ، فقال : «إن الأمير أدرى منى بما يحول دون الوصول إلى مثل هذه الشهادة . فإما أن تستقدم ابن الحنفية إلى هنا أو نذهب إليه» .

فقطع عرفجة كلامه ، وقال : «لا أقبل إلا شهادة ابن الحنفية نفسه» .

فقال الحجاج : «ذلك هين ، فإننا نسأل ابن الحنفية ونعمل بشهادته ، وهو مصدق عندنا ولو لم يكن على دعوتنا» .

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف الهمة فى البحث ، والتفت إلى حسن وقال : «بقى علينا النظر فى تهمتك ، ولكنها ليست تهمة نطلب إثباتها ، وإنما نحن نسألك عما دفعك إلى هذه الوقاحة..» .

وأراد حسن أن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : «أنا أقص عليك الخبر من أوله إلى آخره فقد يخجل أن يقصه هو ..» .

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة ، فقال بصوت مرتفع : «ممم أخجل ؟ أمن قصتى ؟ أأخجل لأنى أنقذتك من الموت أنت

وأهل بيتك ، أم أخجل لأنك خدعتنى بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟ .. إنى لم أعمل عملا أخجل من ذكره» ، ثم وجه كلامه إلى الحجاج ، وقص عليه القصة كلها باختصار ، منذ أنقذه فى العراق ووعده بابنته ، ثم لما جاء إلى المدينة فوعده ثانية ثم أخلف وبعث من يقتله . فلما وصل إلى هنا كان الحجاج مصغيا إلى الحديث بفارغ الصبر . فقطع عرفجة كلام حسن قائلا : «قال إنى سعيت فى قتله ، ولم يقل لماذا .. سعيت فى قتله لأنى رأيت معه كتابا إلى عبد الله بن الزبير الذى فر إليه بالأمس ، فخابرت طارقا بن عمرو والى المدينة بشأنه ، فاعتبره جاسوسا فبعث من يقتله .. وهب أنى كنت قد وعدته بابنتى ثم خطبها مولانا الأمير ، فكيف أستطيع غير الطاعة.. هل يتوقع أن أرفض طلب مولانا وأصغى إلى قوله؟» ..

وقد كان الحجاج إلى تلك الساعة يصبر نفسه ويتجلد فهبت فيه الغيرة، فالتفت إلى حسن وقال: «هل تنكر أنك تحب سمية ؟..» .

قال حسن : « كلا..» .

قال الحجاج: «وتقول ذلك بين يدى، وأنت تعلم انها من نسائى ؟..» .

فظل حسن ساكتا، فقال له الحجاج: «وهل هى تحبك؟..»

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه، فأراد الرفق بها فقال: «لا أدرى..»

فصاح عرفجة: «انها لا تحبه.. ولكنها ساذجة .. فربما استطاع أن يخدعها بكلام الجهال» .

فاستاء حسن من كلام عرفجة ، ولم يسعه الا توبيخه، فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل: «لا أنكر أن سمية ظفرت ببطل تطمع

فيه نساء المسلمين اليوم بعد أمير المؤمنين، ولكنك يا عرفجة لم تـزف ابنتك إلى الأمير الا رغبة فى المال، ولو مهرك هذا المـال زنجـى لزفتها اليه..»

فصاح عرفجة: «يا للوقاحة، أتقول ذلك فى حضرة الأمير، وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة؟..» ، ثم التفت إلى الحجاج وقال: «لقد كفاك يا مولاى صبرا على رجل لم يحترم عرضا ولا نسبا».

فالتفت حسن اليه وقال: «أيجوز لمثلك أن يحرض الأمير على القتل وأنت أحق بالقتل منى؟.. انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التى تدعى إنك تدافع عنها. أما أنا فاذا قتلت، فإنى أذهب شهيد الأمانة والحب الصادق..»

فالتفت عرفجة إلى الحجاج، وقال: «اسمع يا مولاى، انه لا يزال يذكر الحب..»

فقال حسن: «وهل الحب عار؟.. نعم انى أحب سمية حبا شديدا، وأكره أباها كرها شديدا.. ولا أبالى أن أصرح بذلك، وقد أبيح دمى فاقتلونى .. ولكن اعلم يا عرفجة انك مقتول عما قليل لأن شهادة ابن الحنفـيـة آتية فى الطـريق، ان لم تكن قد وصلت الآن..» قال ذلك وتحـول نحو باب الخيمة ونظر من شق فيه لعله يرى بلالا فى جملة الواقفين، فـرآه لا يـزال قادما وقد علاه الغبار.. فخفق قلبه وعاد إلى الحجاج، وقال: «اذا أذن مولاى لرسولى أن يدخل ويسلم اليه ما جاء به من ابن الحنفية تبين له الصدق».

فقال الحجاج: «وأى رسول..؟» .

قال حسن: «رسول كنت وفدته قبل الأمس ليسعى فى الحصول على هذه الشهادة لأنه كان معى يوم حريق الكرسى، وأراه عائدا الآن.. فأمر بإدخاله لنرى ما الذى جاء به..»

فنادى الحجاج: «يا غلام» فدخل أحد غلمانه من الحرس، فقال له: «ترى رجلا قادما برسالة أدخله علينا»

فعاد الغلام ومعه بلال.. فأقبل بلال وبيده «عقله» من القصب الغليظ سلمها إلى الحجاج مختومة، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية وأخرج من عقلة القصب لفافة من الرق فتحها وقرأها.. وعرفجة جالس وقد ظهرت البغتة على وجهه، ورقصت لحيته فى صدره، ولكنه عمد إلى الاستخفاف والمغالطة.. فصار ينظر إلى الحجاج ويبتسم، كأنه يثق بأن الكتاب يتضمن براءته. أما الحجاج فلما فرغ من قراءة الكتاب التفت إلى عرفجة، وقال له: «لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة، وصدق هذا الشاب فيما قاله عنك.. وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان ذلك حرفيا...» .

فهم عرفجة أن يتكلم فانتهره الحجاج ونظر اليه نظرة الغضب وقال: «لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من ادعاءاتك وكذبك» ثم صفق فجاءه الغلام فقال: «إلى بالجلاد» فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد، وعلى رأسه عمامة مستطيلة، وبيده سيف حاد، أعدوه لقطع الرقاب. وكم قطع به رقابا.. فأشار الحجاج بسبابته إلى عرفجة وحسن، وقال: «ائتنى برأسيهما» فأراد عرفجة أن يدافع عن نفسه فلم يستمع له، فصاح: «كيف تأمر بقتلى ولم تتحقق من تهمتى؟.. ان هذه الرسالة مزورة» وأخذ فى الصياح حتى سمع صوته كل من فى المعسكر، فغضب الحجاج وصاح فى الجلاد: «هات رأس هذا أولا» وأشار إلى عرفجة..

فجذبه الجلاد من رقبته بعنف كأنه كان ناقما عليه.. وفى الحق ان المعسكر جميعه كان يشكو من تصرفه وسوء نيته.

فجذبه الجلاد حتى أركعه فى ذلك الفناء، ونزع عمامته عن رأسه .. فركع عرفجة وهو يتلفت إلى الحجاج، والحجاج يعرض عنه .. ولم يكن إلا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه، والناس ينظرون وفى جملتهم حسن.. وكان ذلك المنظر أشد تأثيرا عليه من الجميع لشعوره بقرب أجله.

فلما قتل عرفجة دخل الجلاد على الحجاج والسيف يقطر دما، ووقف ينتظر أمره، فأشار إليه الحجاج أن «خذه».

فأمسك الجلاد فى طوق حسن وأراد جذبه إلى الخارج، فقال حسن للحجاج: «أتقتلنى بعد أن رأيت صدقى وإخلاصى؟».

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب: «أتسألنى عن قتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام؟ ولكننى صبرت حتى تحققت خيانة ذلك الغادر على يدك. أما أنت فذنبك لايجوز النظر فيه، وهذا يكفى».

فقال حسن: «فإذا لم يكن بد من قتلى فاقتلونى داخل هذه الخيمة، وليس على مشهد من الناس».

فقال الحجاج:

«أتشترط علينا كيفية إخراج هذه الروح النجسة؟ اقتله ياجلاد وإلا قتلتك».

فعاد الجلاد إلى حسن فأمسكه وجذبه، فقال حسن:

«لا تجذبنى فإن الموت أهون ما ألقاه، وأنا واثق من براءتى»..

وفيما هما يهمان بالخروج سمعا صوتا يقول:

«البريد، البريد من أمير المؤمنين» وكان من عادتهم أنه إذا جاء البريد لايمنعونه ولايؤخرون حامله لحظة، سواء كان قادما من الخليفة أو إليه، فلما سمع الحجاج صوت البريد، قال: «ادخلوه».

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد انهكه التعب وتعفرت ثيابه، وسلم إليه كتابا مختوما،. ولم يعد يستطيع الوقوف

لكثرة التعب، وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد، ولكنه استغرب وقوع الرجل فنظر اليه وتفرس فيه. فإذا هو صديقه والد سليمان، فتذكر انه كان قد أرسله الى خالد بن يزيد فى الشام بشأن رملة، ولابد أن يكون قد عاد بجواب خالد الى ابن الزبير..

فعزم حسن على الاستئذان من الحجاج بكلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله، ليكلفه بأن يبلغ خالدا رضاء ابن الزبير، وان رملة فى انتظاره لتزف اليه، فيكون قد أتم مهمته قبل موته..

أما الحجاج فتناول الكتاب ونظر الى الختم على ظاهره، فإذا هو ختم الخليفة ثم نظر الى الرجل الذى حمله، فإذا هو ليس صاحب البريد فقال له:

«من أين لك هذا الكتاب؟.. هل أنت من عمال البريد»؟

قال والد سليمان:

«لست منهم ولكنهم حملونى على دواب البريد للإسراع فى إبلاغ هذه الرسالة الى مولاى». قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف..

ففض الحجاج ختم الكتاب وفتحه، وجعل يتلوه ويعيد قراءته، وقد ظهر التأثر فى عينيه. ثم جعل ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل فى ختمه ويقلبه بين يديه.

وبعد أن أعاد قراءة الكتاب مرارا، أشار الى الجلاد فانصرف.. ولم يبق فى الخيمة الا هو وحسن ووالد سليمان فالتفت الى حسن وقال:

«هذا كتاب من أمير المؤمنين جاءنى بما كنت تبغيه أنت. ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن فى الأرض من ينجيك من القتل».

فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرته، ولكنه لم يطمئن تماماً لأنه لم يفهم مافى هذا الكتاب فهما صريحاً، فأطرق وظل ساكتاً.

فنادى الحجاج: «ياغلام»، فدخل غلامه فقال: «ادع الكاتب» فخرج ثم عاد بالكاتب، فدفع اليه الكتاب، وقال: «اتل هذا علينا».. فتلاه وهذا نصه:

«من أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا فى الحجاز. أما بعد، فقد بلغنى انك خطبت ابنة عرفجة المنافق، وهى مخطوبة لحسن، فأخذتها وحرمته منها والرجل ينتمى الينا وتهمنا رعايته، فإذا أتاك كتابى أحمل الفتاة الى خطيبها وأمهره بما يقوم بالنفقة. والله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه لأهون على من ارتكابك هذا الأمر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا.. وثقتى انك فاعل ما أقول والسلام».

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب، حتى رقص قلب حسن طرباً، وقد حسب نفسه فى حلم.. ثم سمع الحجاج يقول:

«لم نتل الكتاب الا لتعلم اننا انما تجاوزنا عنك عملا بأمر أمير المؤمنين».. والتفت الى غلامه وقال: «اعطه ألف دينار.. وسمية طالق منذ الآن.. وامض به الى خباء النساء وانبىء أهله اننا طلقنا سمية وزوجناها حسنا، فلتذهب معه آمنة».

مصيبة أخرى

وقبل أن يتم خروجهم، رأوا فارساً يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة على وجهه، حتى إذا وصل إلى الفسطاط ترجل ودخل بدون أن يستأذن، وهو يقول: «ان مصيبة حلت فى خباء النساء».

فلما سمع حسن الصوت علم انه صوت عريف الحرس، وخشى أن يكون نحسه لا يزال غالبا، فتكون المصيبة قد حلت فى سمية. فأصغى فسمع الرجل يقول:

«ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت سما أو أصابها الموت بغتة».

فلما سمع حسن ذلك صعد الدم الى وجهه، وأحس كأن صخراً سقط على أم رأسه فكاد يفقده رشده، واندفع يعدو نحو خباء سمية، ولم يكن والد سليمان أقل بغتة منه لأنه بعد أن بذل وسعه فى خدمة حسن، وتوسل بخالد لدى عبدالملك حتى استكتبه ذلك الكتاب الى الحجاج، ثم أجهد نفسه فى سرعة السفر حتى تجاوز خطوات البريد وجاء بالكتاب فى آخر لحظة، وسره نجاحه فى انقاذ حسن ونجاة سمية.. بعد أن وفق فى كل ذلك، جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت صوابه فانطلق فى أثر حسن نحو الخباء، وعلى أثرهما بلال وغلام الحجاج..

أما سمية فكانت قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه تلك الليلة، وما أمرهم به من حبس حسن الى الصباح، وقد أيقنت أن الحجاج لا يبقى عليه.. ولكنها تعللت بالممكن البعيد وصبرت نفسها الى ما يكون فى الغد، فقضت تلك الليلة وهى تفكر فى مصير حسن، وأصبحت وقد أعدت السم الى وقت الحاجة، وجلست وراء الخباء تتسمع ما يتناقله الحراس من حديث ذلك اليوم..

فجاء أحدهم بخبر مقتل عرفجة، فدق قلبها أسفاً على والدها وخوفا على حبيبها.

وبعد قليل جاءهم مخبر آخر يقول ان الحجاج قد قتل حسن داخل خيمته. فهمت سمية الى السم وابتلعته حالا، فرأتها امة الله

وهى تفعل ذلك، فأسرعت لمنعها فلم تدركها الا وقد ابتلعته.. فصاحت وولولت .

أما حسن فقد كان يعدو ، حتى أشرف على الخباء، فصاح وهو لا يعى ما يقول: «سمية.. سمية.. أنا حى.. سمية ياحبيبتى» ..

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان اعتراضه ، فأخبرهم الغلام بأمر الحجاج فتركوه.. فأطل من الباب فرأى فيه نسوة حول سمية وهى مستلقية كأنها جثة بلا روح، وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها، فصرخ حسن حين رآها على تلك الحال، ثم اندفع نحوها وفى يده خنجره فتفرقت النساء عنها، فقال وهو يجس يدها :

«حبيبتى.. روحى.. منيتى.. ماذا أصابك!.. تجرعت السم يأسا من حياتى ؟.. انى حى ياسمية.. سمية اما أن تحيى مثلى.. أو أموت مثلك» ..

وفيما هو يفعل ذلك ويهم أن يطعن نفسه بالخنجر، أحس بيد أمسكته وسمع صوتاً يناديه :

«تمهل ياحسن، ان سمية حية لا بأس عليها» .. فالتفت فرأى ليلى الاخيلية وبيدها كوب ماء جاءت به لترش سمية. فقال حسن:

«ماذا تقولين، كيف تحيا وهى قد تجرعت سماً يكفى لقتل أشد الرجال ؟» .

قالت ليلى : «أن الذى تجرعته ليس سما، لا تخف» ..

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به من بعيد، فحركت سمية رأسها ثم حركت شفتيها، وقالت: «حسن .. قتلوك قتلهم الله إنى ذاهبة اليك» .

فلما سمع حسن صوتها جثا عند رأسها، وقال لها :

«سمية.. سمية.. أنا حسن.. أنا حى ياحبيبتى وقد أنقذنى الله» ..

ففتحت سمية عينيها وهى تقول :

«ماهذه الأحلام.. أين حسن ؟» ، ولما وقع بصرها على حسن، شخصت فيه لحظة ثم قالت : «حسن.. حسن ؟» .

فأجابها حسن: «نعم.. نعم.. أنا حسن» .

فجلست للحال وألقت بنفسها عليه وأخذت فى البكاء، وهو يقول لها :

«لا تبكى ياسمية.. اننى بخير» .

فقالت له ليلى :

«دعها تبكى فتنفس عن كبتها وتصحو من سكرتها» ..

ولما سكن روعها التفتت الى من حولها، فرأت ليلى وهندا وأمة الله، لم تصدق أنها شفيت، فقالت :

«يظهر أن السم تأخر فعله» .

فقالت ليلى :

«انك لم تتجرعى الا دقيق الذرة. وأما السم الذى ظننت انك تجرعته، فهى معى» . قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم، وقالت: «ألا تذكرين الليلة التى بت فيها عندك وأنت تتوعدين نفسك بالسم ؟.. لقد أبدلت السم، فى غفلة منك، بدقيق الذرة اليابسة لأنى خفت مثل هذه العجلة، فأحمد الله على نجاتك» .

فراحت سمية الى ليلى تقبلها، وقالت :

«جزاك الله خيراً» .

فقال حسن :

«نعم.. جزاها الله بكل خير» .. ثم قص عليهن ما دار بينه وبين الحجاج بالاختصار، حتى أتى على ذكر والد سليمان، وكيف

جاءهم فى ابان الضيق، وانه كان السبب فى نجاته من الموت، كما كانت ليلى سببا فى نجاة سمية منه. وكان والد سليمان لا يزال خارج الخباء، فناداه حسن فدخل، ومعه عبدالله الذى قال: «لا تظننى تخلفت عن خدمة مولاى، ولكننى أصبحت بعد اخراجك من السجن تحت غضب عرفجة، فلم أعد أستطيع الظهور، فظللت متخفيا أتنسم الأخبار. فلما تحققت من نجاتك على هذه الصورة، جئت لأكون فى خدمتك»..

وكانت سمية قد صحت وتيقنت انها قد فازت بحبيبها، وانها نجت من والدها، فثبت بصرها فى حسن وبصره فيها، واكتفيا بلغة العينين، ثم قال حسن:

«والى أين تودين الذهاب؟.. وأين نقيم»؟»..

فأجابه والد سليمان على الفور:

«تقيمان عندنا فى المدينة»..

فقال حسن:

«لقد ذكرتنى أمر رملة، هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير فى طلب رملة. وكيف حصلت على هذا الأمر من عبدالملك»؟».

فقص عليه خبر سعيه فى ذلك الأمر على يد خالد، ثم قال:

«واما ابن الزبير فقد جئته بالكتاب، ولكنه وا أسفاه عليه قتل ولا ندرى ماذا تم لأهله».

فقال حسن: «أهله لا يزالون فى مأمن بمكة، وقد صرح لى بقبوله بالزواج». وقص عليه الأمر موجزاً، ثم قال:

«وبعد عودتنا الى المدينة، سأبعث عبدالله الى خالد بالخبر ليبعث واحداً يحمل رملة اليه»..

ثم التفت الى ليلى، وقال لها:

«ولست أنسى تعبك أيتها الصديقة فى سبيل هذا الأمر، ويكفى

انك كنت سبباً فى بقاء سمية، كما كان العم والد سليمان سببا فى بقائى».

فقالت ليلى:

«لا فضل لى فى ذلك، وقد فعلته وأنا مندفعة بدافع قهرى، لأنى جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم.. ولا أظن أحدا من هؤلاء أدرك من حالكما ما أدركته أنا لأنى وقعت فى مثل هذا البلاء، ولكننى لم أفز كما فزتما».

فأدرك حسن انها تشير الى حالتها مع توبة، فشكر الله وسكت عن جوابها لئلا يثير عواطفها.

ثم وقف والد سليمان، وقال:

«كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم، وكل شىء يجرى بقضاء من الله سبحانه وتعالى .. هلم بنا الآن نستعد للرحيل، وها هما عبدالله وبلال يعدان الأحمال، ونحن نستعد معهما للرحيل».

وفى أصيل ذلك اليوم، شدوا الأحمال وساروا جميعاً نحو المدينة الا ليلى، فإنها التمست وجهة أخرى. ولما وصلوا الى المدينة، ساروا توا الى بيت عرفجة، وقد أصبح بما فيه ميراثاً شرعيا لسمية، وكذلك كل ما كان يملكه عرفجة من العقار. وفى يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم، وقد سر بنجاح مهمتهم. واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالاً حضرته سكينة بنت الحسين وغيرها من سكان المدينة، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة، وغنى فى الاحتفال طويس وعزة الميلاء، وبعد الفراغ من العرس، سار عبدالله الى خالد فى دمشق ومعه كتاب حسن، بتفصيل ما وقع له بخصوص رملة وبلغة جواب ابن الزبير، فجاء خالد وتزوج رملة بنت الزبير كما هو مدون فى التاريخ.


مكة المكرمة
أيام حصار الحجاج بن يوسف
طريق المدينة المنورة
طريق البصرة
الطريق إلى منى وعرفات
الخيف
المحصب
الجعيرانة
المعلاة
آبار
الطريق إلى وادي فاطمة
كداء
آبار
شعب بني عامر
جبل أبي قبيس
جبل هندي
غار حراء
الحجون
المروة
الصفا
أجياد
جبل خندمة
الطريق إلى جدة
جبل عمر
مكان القلعة القديمة
الطريق إلى اليمن
يلملم

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة